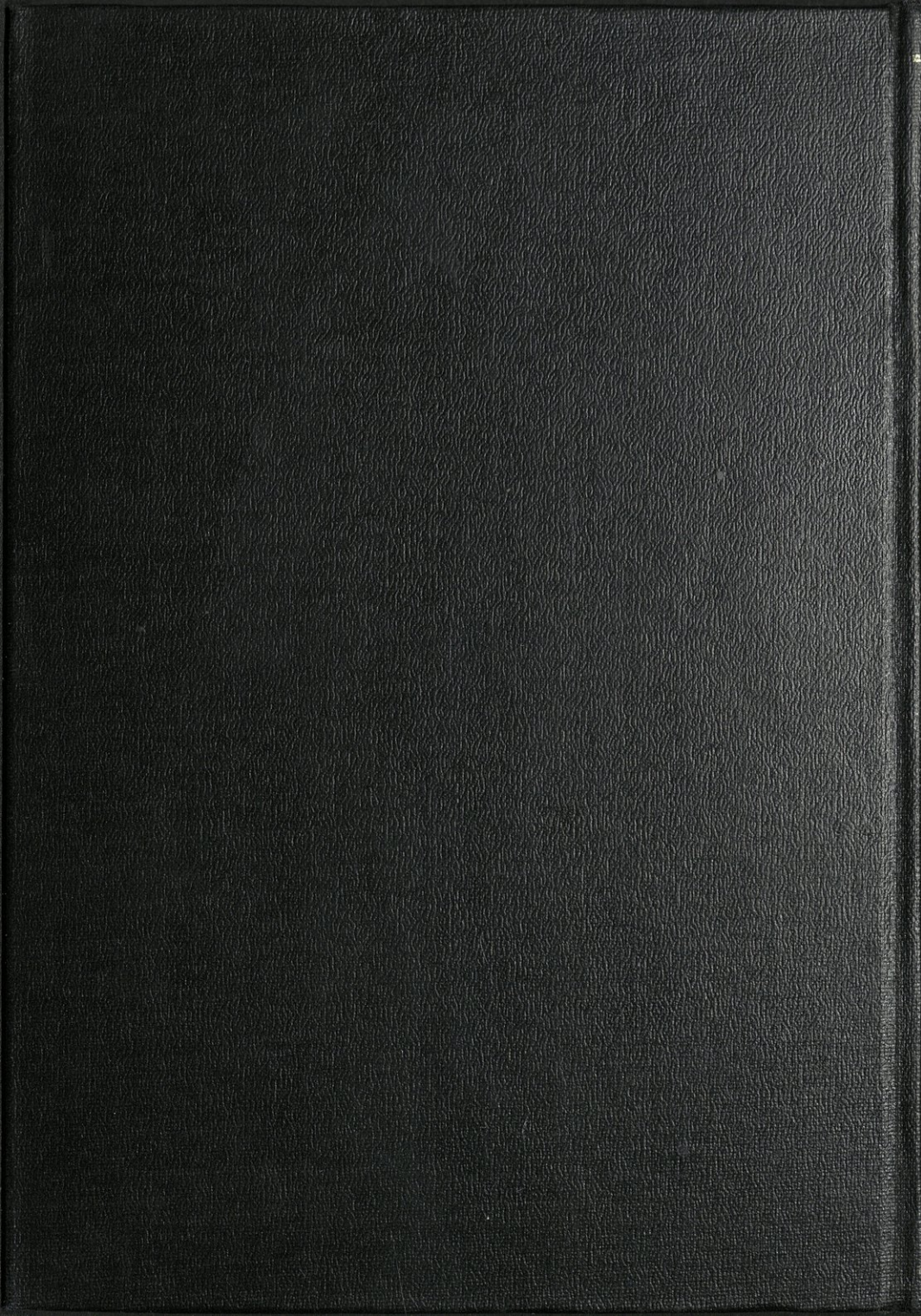
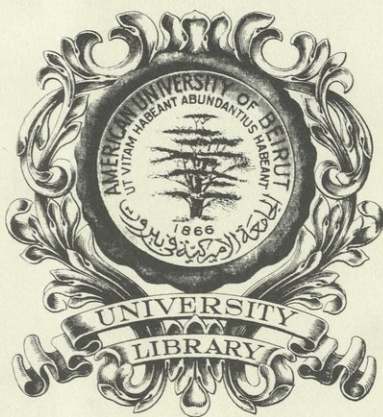
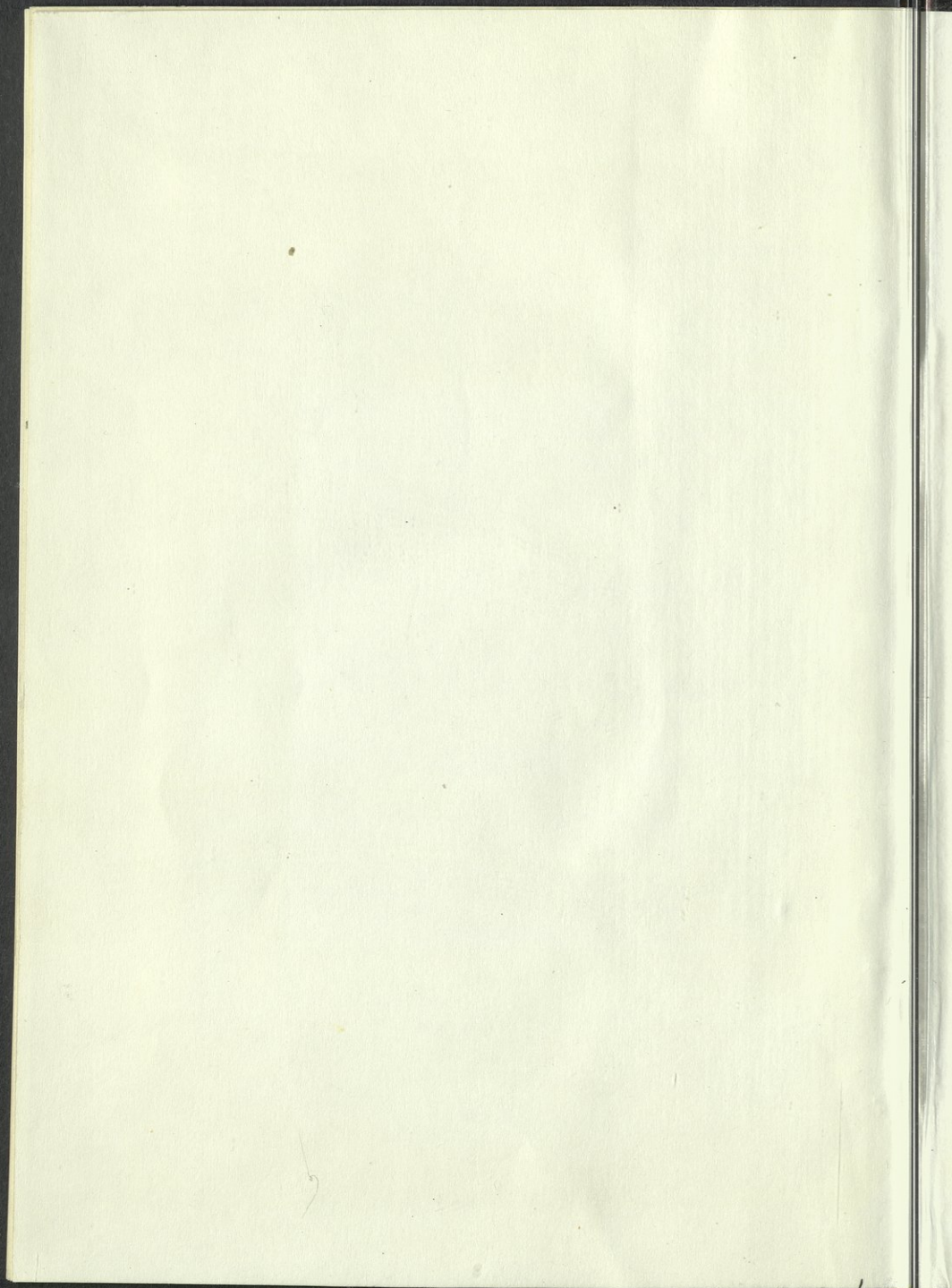


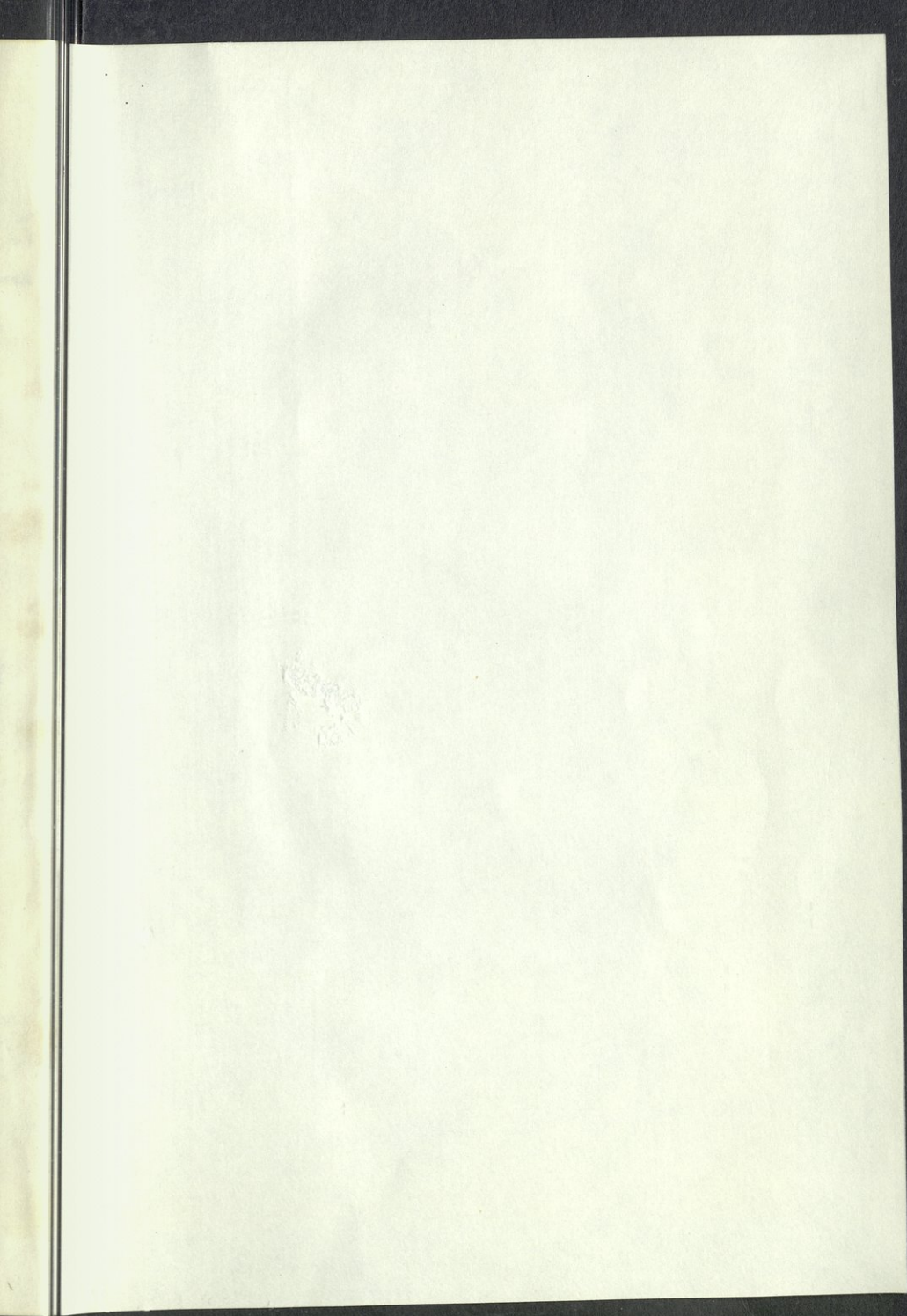


A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT







المراة

في البيت والاجتماع

مؤلفه: د. محمد عبد الحليم

الطبعة الأولى: ١٩٦٠

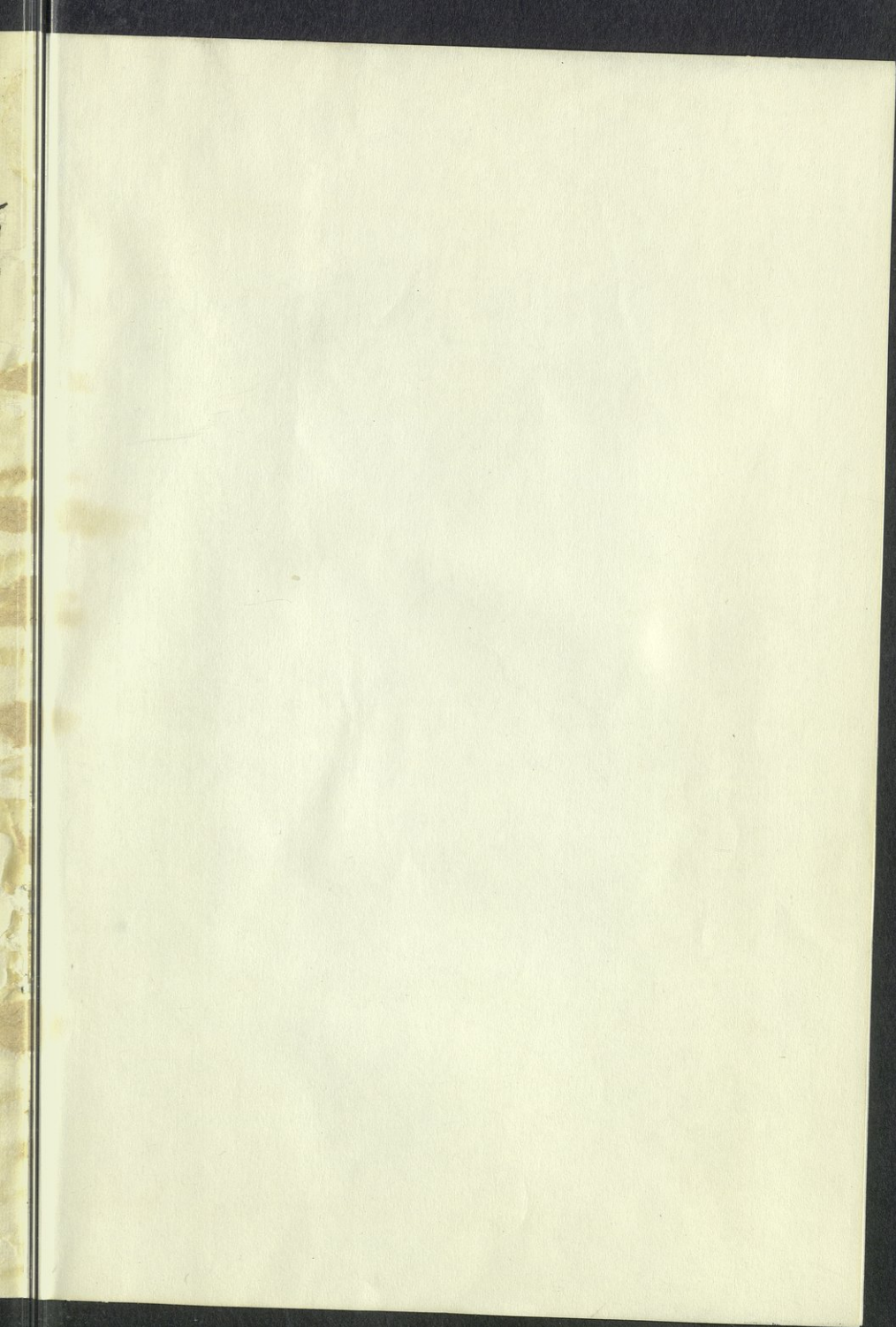
—

—

١٩٦٠ - ١٩٦١

—

مركز البحوث والدراسات الإسلامية



الى سعادة المندوب البعثي
المربي الأكبر السيد فيليب

المكتتاب الثاني

م. حفظ الم. المؤلف

301.412

DI244A

v.2

c.1

و محمد علي
الزعي

الرفقة

١٩٥٠

هبط

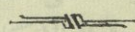
المرأة

في السياسة والاجتماع

تأليف

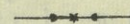
هاشم وقتر دار المربي و محمد علي الزعي

الاستاذ في كلية فاروق الاولى الشرعية ببيروت



صدر

١٣٦٩ هـ ١٩٥٠ م



— الطبعة الاولى —

حقوق الطبع والتعريب محفوظة لدار الانصاف

في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٨٥
بمدينة مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل
العلم نوراً والدين
هدى للناس

والصلاة والسلام
على من لا نبي بعده

كتاب الصلاة في رمضان

كتاب

في صلاة الفجر في شهر رمضان

بمكة المكرمة سنة ١٢٨٥

بسم الله

٥٦١٠ ٠ ٥٦١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل العلم نوراً

Philip Amiri

المقدمة

L-55-14504

كان يقول « ديدرو » إن الذي يود ، أن يكتب عن المرأة ، يجب عليه أن يغمس قلمه في قوس قزح . وقوس قزح هنا ، مجلي الاقنن والسحر والطهر والجمال ، والحياة والحُصْب ، والسمو والرفعة . والكتابة عن المرأة ، هي كتابة عن سر الحياة الاول والاخير ما دام بيد المرأة إسعاد الحياة وخيرها ونبلها ، بل سلامها وبقاؤها ، ومن يود لدى الكتابة عن المرأة ، إلى حماة الغريزة للتجارة والاستغلال ، أو لايحسّن الابانة عن ألوان الطيف الزاهي ، أو يعجز عن سمو ، أو يلتو عليه القصد ، أو يضق به الفكر ، أو يجهل المعرفة ، أو تصغر في عينيهِ المرأة ، فلا يبصر من تاريخها إلا صغار نفسه ، فالأجدد به أن يحطم قلمه ، وأن يدع الكتابة في موضوع يعجز عن التعليق فيه ، والاخلاص له .

والذي حدانا إلى الاسراع ، في انجاز الكتاب الثاني من سلسلتنا هذه ، هو ملاقاته صدور الكتاب الاول ، من الدوي الهائل ، في كل أوساط المرأة ، حتى نفذ من الدار ، ولما ينقض شطر العام ، وطلب البنا ترجمته إلى الانكليزية والتركية والاوردية . وقد دلتنا على جلال حيوية المرأة العصرية المثقفة ، وعميق وعيها لكل ما يكتب عنها ، جملة الرسائل التي وافتنا بها . وهي وإن كانت لا تخلو من إسراف في الثناء أو اغراق في النقد ، فانها تحوي أهدافا قيمة ، ما وسعنا حياها إلا أن نوجه بحوثنا اليها توجيها رقيقا

لأن الصراحة والصدق ، اللذين أخذنا أنفسنا بهما ، يحفراننا بكل إخلاص ، إلى الإعجاب بهما وإكبارهما إذا وافانا بهما سواء ، في طهر البطولة ، والايان بضرورة التجديد والنهضة ، واستعادة الامجاد . وقارئنا سيبهرن - فيما يلي من نقاط مبسطة - اكبارنا للنقد ، إذا جاء نزها مشرقاً ، يرفعه حب الخير للانسانية ، ويسمو به شرف النفس عن أضرار الاحقاد الوضيعة ، التي تكون عادة من رواسب عصور الانحطاط ، في أنفـس المرضى .

ونحن بعد نستعذب المجهودات الجبارة التي نبذلها معاً لبلاوغاراً ، في استقصاء موضوعات هذه السلسلة الفذة ، من أعماق تاريخ حياة المرأة ، في شتى ادوارها . والتي ستمتاز بها اللغة العربية بلاريب ، تاركين في أنفـس المرضى الحسرة والغصة ، علمهم يقضون فيرجوا الامة من بلایاهم ، ما داموا لا يعلمون أن الاعضاء الحية القوية في الامة ، تكسبهم هم الحياة ، وتطهرهم من أدوائهم الموبقة كل التطهير . ١ - « ... وإن سلسلة كهذه ، تشمل على بسط تاريخ حياة المرأة ، في صميم السياسة والاجتماع ، وتذخر أنجـادا في الاسرة والمجتمع ، يجب أن يكون لها حظ من الدعاية كـبير يوازي قيمتها ... »

ونحن نحبب صاحبة الرسالة بكلمة الانسان « الانسان » ، إبراهيم لنـكن » ، إذ يقول ، في خـدع الدعايات الكاذبة وذوياً ... « في استطاعتهم أن يـخدعوا بعض الناس في بعض الوقت ، ولكن ليس في استطاعتهم أن يـخدعوا كل الناس في كل الوقت ،

(٢) أجل ، إن الدعايات تخدع كثيراً ، الاحداث والاغرار من الدهماء وتروج الباطل في ثوب الحق ، والشر في غلالة الخير ، والجهل في رداء العلم ، والاثرة في معطف الايثار ، ولكن في النهاية ، لابد أن تهتك عنها الاستار ، وتظهر الحقائق للناس جميعاً على أننا اكتفينا بحبوبة الكتاب الخالدة ، وكبير منافعه الاصلاحية عن كل الدعايات ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » (١) وإذا لم تكن حيوية الكتاب الداخلية هي الدعاية الحية ، فما تحميه ، ولن تحميه الدعايات الخارجية .

٢ - يقول بعض السكانيين البناء ، «لماذا لا تأخذون في التحليل والاستنتاج ، لدى استعراضكم موضوعات الكتاب ، وفانه أندما إننا نستعرض في كتابنا تاريخ حياة المرأة ، في الناحية التي نبحثها منذ أقدم الاجيال إلى اليوم ، تاركين شرح البواعث والاسباب والاستنتاجات لفرة اخرى ، بعد إنهاء هذه السلسلة ، لأن التحليل والاستنتاج ، قبل شمول المعرفة ، يأتي قلقاً مبتوراً لاغناء فيه ولاخير .

٣ - « . . لاحظت أنفسكم أعرضتم عن ذكر « أرميزة » قائدة البحرية الفارسية ، لدى اصطدام فارس باليونان ، ولا يحمل افعال مثلها ثقافياً ، وذلك بما يؤسف المثقفات العالمات » .
والواقع الذي بعيننا إعلانه أننا ما أعرضنا عن ذكرها ، وذكر

سواها ، أمثال « ديدون » (١) و « تركمان خاتون » (٢) و « فاطمة الاسعد » (٣) و « ماء السماء بنت عوف اللخمية » (٤) و « عذراء سرقسطه » (٥) . . . إلا خشية أن نعوص ، في اعماق الابحاث التاريخية ، فنضيع على القارئ أبحاثاً أخرى ، هي خليقة بالاهتمام والدرس . ورغبة في الافادة ، وإيثاراً للنفع العام ، كففنا من الافاضة بعض الشيء مضطرين ، لنجعل الكتاب على وضعية توائم كل القابليات ، وتناسب كل العقليات .

(١) هي الفتاة الصورية مؤسسة مجد فنيقيا وراء البحار . راجع الدر المنثور ١٩٤

(٢) والدة السلطان « سنجر » عاصرت الامام الغزالي ، وكانت تقيم برأيه ، أسرت في حرب دفاعية وماتت في الاسر . راجع مركز المرأة في الاسلام ١١٨

(٣) بنت اسعد الحليل ، شاركت زوجها علي الاسعد حكم بلاد بشارة شمال فلسطين - وخصصت قسماً من بيتها وماله للايتام عاشت آخر القرن الثالث عشر للهجرة . راجع أعلام النساء ٣٠٨-١١٣٨

(٤) تولت ملك الحيرة ومن نسلها ملوك العراق قبل الاسلام طلب ودها الاكسرة ، وهادوها بالجواهر . راجع نهضة المرأة المصرية ١٠

(٥) أوغسطينا الاسبانية ، جان درك الاسبان ، أو خولة العرب ، اشتهرت بالدفاع عن اسبانيا ، اثناء حملات الفرنسيين عليها ١٨٠٨ - ١٨٠٩ وظفرت بهذه الحملات ، وقادت فرقاً متعددة .

راجع الدر المنثور ٤٣

أما ارميزة ، فقد جاء ذكرها في عدة مصادر ، راجع المقتطف ٧-١٧

٤ - ... ما همدنا أن الخطاب ، يوجه إلى المرأة فحسب في كتاب ، من الفه إلى يائه ، لا في القديم ولا في الحديث ، وأحسبكم أنكم تتملقون المرأة في توجيه الخطاب اليها وحدها .

لماذا ، لماذا هذا التملق الظاهر ؟ والمرأة بطبيعتها منضوية تحت جناح الرجل ، في كل بلاد العالم ، وفي كل لغاتها . . .

وتفاديا عن بسط ما تشتمل عليه هذه الرسالة ، من إطالة جارية تدور حول هذه الفكرة . نقول : لأرب أن للمرأة شخصية مستقلة لا ينازعها فيها منازع ، مهما بلغ من الامر ، وإننا نشاهد هذه الشخصية المستقلة ، في كل بلاد العالم وفي كل لغاتها .

نعم تمتاز اللغة العربية ، بكفاية وضوحها في هذه الناحية ، بصورة جد رائعة . ونؤكد لنا قدنا الكريم ، أنا تتمدنا توجيه الخطاب اليها في هذه السلسلة تيمداً ، احتفاظا بشخصيتها ، ورعاية لأدب الله ورسوله في ذلك « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاصعين والخاصعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً » . (١)

(١) سورة الاحزاب آية ٣٥ . وإنا نجد القرآن المجيد ذاخراً بالآيات الموجهة إلى المرأة ، وكذلك الاحاديث الشريفة ، وقد أثرتا ذكر هذه الآية الكريمة ، لأن بعض النساء المجيدات في عصر

على أن هذه السلسلة ، هي خاصة بالمرأة ، في كل انجاهاتها
ومقاصدها ، فمن العدل والحق أن يوجه الخطاب إليها .
وإذا كان ناقدا البجائة يقول : « إن هذا أول كتاب في التاريخ
يوجه فيه الخطاب إلى المرأة ٠٠٠٠ » .

النبوة ، ذاكرن رسول الله ﷺ في شأن اختصاصهن بالذكر في
كتاب الله ، وأسفقن من الاعراض عن ذكرهن مختصات ، وخفن
أن يكون ذلك لحية أو خسار في المرأة ، فأنزل الله هذه الآية
وأمثالها دفعاً لذلك الظن ، وبيانا لقيمة المرأة ، وأنها شريكة في
اعباء الحياة ، والاستجابة للتكاليف المفروضة ، التي تشتمل على
سعادة الجميع ، كما هو مبين في نص الآية ، راجع تفسير الجلالين ٥-١٧
وكم نجد من الفارق العظيم ، بين نفسية الصحابيات الكريمات
اللاتي يحافظن على شخصيتهن كل المحافظة ، وبين بعض المتعلمات في
هذا العصر ، التي راق لها أن تطلب حذف نون النسوة من اللغة
قائلة : يكفي أن نقول كتبوا للرجال والنساء معا ، ناسية أنها
بذلك تذيب شخصية المرأة من صميم اللغة ، التي احتفظت بها في كل
الاطوار ، ولو أنها انصفت أو انتصفت لآخواتها ل قالت : الأولى
أن نحذف من اللغة واوالجماعة ، فنقول للرجال والنساء معا ، كتبن
وإذا ثار الرجل محتجاً ، لأنه بضرورة الحال يرفض ذلك ، فيكون
الأولى أن تظل شخصية كل من الفريقين محفوظة ، احتراماً
واجلاً ، وتقديراً للقيم ، نقول ذلك ونحن نعلم ، أن حق أوضاع
اللغة ، إنما هو للأجيال والجماعات لا للأفراد وسخافاتهم .

فليكن ، وما يضيرنا أن يستنيم جنبه إلى جنبها ، منضوباً في كتاب واحد ، ما دام نأخذنا يرى ، أن قراءته له ، والخطاب موجه إلى المرأة ، فيه جرح لكرامته ، وهذا غير لائق في حقه ، وقصارى ما يريده ، أن توجه الخطاب الى الرجل ، وإن كان مقصودنا المرأة ، لا لشيء سوى رعاية التقاليد ، لما تواطأ عليه الكتاب .

هـ - لا يلد لنا تقدير المثققات لهذه السلسلة الاصلاحية ، بما نفحننا به من رسائل حماسية ، تدل على الحياة والوعي والسمو ، والسير على تأييد الاعمال الاجتماعية الخالدة ، بأكثر مما يلد لنا تأثيرها في كل أوساط المرأة ، تأثيراً عملياً ينهض بالاخوات المنطويات على رغبات انفسهن الضيقة ، اللاتي لا يبصرن من قيم الحياة ، الخليفة بالاعجاب والتقدير ، والعمل والتضحية ، إلا أوجههن في المرأة ، ولا يحسن من الاعمال سواها أبداً .

وإن يعزب عن بالنا ، أنهن أردن برسائلكن حماستنا إلى موالاة إصدارها ، ونحن نعاهدن أنه لم يك في نيتنا حين اعترمنا ذلك ، أن نتراجع عن الدرس والبحث والإصدار ، سواء أوجدنا من يفهم جلال ما نقدم فيبالي وبعلي ، أم من لم يفهم فلا يبالي ولا يعلن ، وسواء أكانت الاسباب والتكاليف شاقة عسيرة ، أم سهلة يسيرة ، وسواء أفرضتها وزارات المعارف في العالم ، على الطالبات لنشق لمن طريق المجد والفضيلة والانسانية ، والخير والوطنية ، أم لم تفرضها . (١)

(١) إن أول وزارة فطنت إلى نفع هذه السلسلة ، الاصلاحية القيمة ، التي وضعت لبعت الحياة والفضيلة والنبل ، في نفس كل

٦- هانحن أولاء أشرفنا إلى النقاط ، الجديرة بالاشارة ، ولم نقم لسواها وزنا ، لأنها من فصيلة النقد الفضولي ، الذي لا يعبر إلا عن سطحية في الفكر ، أو شواظ في الصدر ، غير خليق بالاحتفال والعناية وإذا كان الفنان البارع ، يأبى أن ينقده إلا فنان مثله ، أو يربو عليه ، ليُفيد ويستفيد ، فمن حقنا ألا نقبل نقد من لا يستطيع أن يقيم مثل هذا البناء الشامخ ، الذي نقيمه على أمتن القواعد العلمية الصحيحة والادب الفني السامي ، والروح الانساني المثالي وكريم الاخلاق .

وإننا لانجد مثالا بارعاً لوضاعة النقد الفضولي الخاسر ، أصدق من قصة « جحا وحمارة » التي وضعها بعض الادباء .

فتاة ، هي وزارة المعارف المصرية ، فقد وافاها في ١٣ حزيران سنة ١٩٤٩ من مديرية إدارة تقرير الكتب المدرسية ، طلب الكتاب ، وإننا نرجو من كل الوزارات في العالم ، التي تعنيها مسألة السلام والمرأة ، أن تتوفر على الدرس والنظر والتمحيص في الكتب التي تهدف إلى هذه الناحية ، إذ تبين لنا بعد طول الاختبار والتجربة ، أن أكثر الكتب التي تذاع ، تجاوية تفرض بالوساطات والشفاعات ، بله أنها اقطاعية مجرمة مزقة .

وهذا لن يكون منا ابداً ، وإننا نعتقد أن الجيد الحسن يفرض نفسه فرضاً ، فما كل كتاب يصدر يجب أن يهمل ، ولا كل كتاب يجب أن يقرر ، ولا كل مؤلف يرضى أن يريق ماء وجهه ، على الابواب والعتبات ، وإن كان يؤمن أن مؤلفه يحوى حياة الامة ، ويشتمل على سعادة الانسانية .

«...نزل المسكين جحاً عن الحمار، لما أحس النقد يلذعه من هنا وهناك ، وأركب ولده ومشى ، ولكن النقد عاد وتضخم حوله، فما وسعه إلا أن يركب معه ، وحين عجز عن الاحتمال ، ونقد منه الصبر ، نزلوا معاً وسارا خلف الحمار ...!! ساخرين ساخرين ...»
وكم في هذه القصة من عبقرية في تصوير النقد الفضولي، تصويراً فنياً رائعاً ، وهزه بالناقدين الفضوليين ، الذين يجهلون أصول النقد العلمي ، ولا يفهمون مواطن الضعف الفني وقوته ، ولا يعجبهم في كل مجتمع إلا أن يتكلموا ، لالشيء سوى أنه يلذهم أن يتكلموا ، هم يعجزون عن حل السنتهم ، فيرسلونها هنا وهناك سخافة وثرثرة .

٧ - إما نقدم إلى قارئنا أحر الرجاء - قبل أن يباشر في تلاوة فصول هذا الكتاب - أن يتذكر أننا اثرتنا في الكتاب الاول إلى أنهن سيجدننا أعدنا ذكر بعض من سبق من النساء هناك فيخلن ذلك من التكرار الملل ، ونحن ابعد ما نكون عن التكرار وإنا - كما قلنا - نذكر في كل كتاب ، بل في كل فصل الجانب الموائم له ، فقد تكون للمرأة الواحدة، ذات الحياة القوية ، نواح شتى ، فهي بالضرورة تذكر هنا وهناك ، حسب تعدد حيواتها ، وتسلسل البحوث لدينا ، وارتباطها بموضوعنا الفني الذي نعالجه في الناحية الخاصة به .

٨ - ونحن اذ جعلنا ، أهداف سلسلتنا انسانية محضة ، لانتنكر ولا نخقد على من يجمع شتات الكلمة ويضمد جروح الانسانية بالمودة والاخاء والتسامح ، والتثقيف والمساعدة ، سواء أكان

بين أفراد أسرة واحدة أو أسر ، أو بين أهل مدينة واحدة أو
 مدن ، أو بين مقاطعة واحدة أو مقاطعات ، أو بين قارة أو قارات ،
 فهو في عقيدتنا رجل اجتماعي إنساني مهذب ، خليق بالاكبار
 والتأييد ، إن لم يتخذ ذلك ذريعة ، لتمزيق كلمة الإنسانية من
 طريق آخر ، للتجارة والربح باسمها لغايات شخصية ملعونة ،
 فهناك الاجرام والحياة ، وهناك الكفر بالثقافة والعلم والعقل ،
 ومثل الإنسانية العليا ، وكتب السماء والرسول « صلوات الله عليهم »
 ٩ - نحن نعالج تاريخ حياة المرأة ، في شتى نواحيها واطوارها ،
 معالجة شاملة ، مستقيمين كل طبائعها الفطرية وإمكاناتها ، مترفعين
 عن الانسياب ، في تيار بعض السكاكين ، الذين يلعبون على حبال
 المرأة ، للتجارة وهوى النفس ، ويخدعونها عن نفسها أنهم حين
 يعلنون لها ، أنهم يمنحونها كل الحرية الذاتية ، وكل الانطلاق وكل
 الاستقلال ، و يرفضون عنها أن تنضوي تحت جدار ، أو تدعن
 لأية وشيجة ، يفعلون ذلك بوحى اهدافهم الكمينية ، ويلبسون
 عليها حتى لا تظن أنهم يشبهون الذي يقف على شاطئ البحر ، ويهيب
 بمخلوقاته جاناً ما جئنا : « إلى الفضاء الواسع ، إلى حرية الانطلاق ،
 إلى التحليق في السماء الصافية إلى . . . » ، !! غير ملتفت إلى كنه
 الطبيعة الساحر ، وحقيقة الحياة الهازنة ، لأنه فاهم أنه يضطاد .
 ولما سمونا كل السمو عن مثل هذه الاهداف الوضيعة ، وكل
 رائدة الحق والخير والفضيلة ، مدرकिन أن المثقفات العالمات ،
 والمفكرات الدارسات ، اللائي يقدرن موازين كل شيء ، ويضعنها
 في مواضع نواحيها الطبيعية ، لا يجهلن الحقيقة ابدآ .

وكم يسرنا أن نصارحن، أنا كنا أعدونا صحيفة طافعة بأمثال
 هذه السخافات « المرأة المرأة ، الحرية المطلقة ، لا بيت بعد اليوم
 طيري طيري ابتها المرأة ... !! » وكنا اردنا بها ان نسبق سوانا
 في اكتساب قلب المرأة الجاهلة، ولكننا الفينا أنفسنا في جمعية للمرأة
 وسمعنا من أطراف الحديث الساخر عن أولئك المفتونين ما جعلنا
 نسارع إلى صحيفتنا ونزقها في جنح الظلام .
 وإنا نرجو إلى قارئنا حين نعلن هذه الحقيقة، أن يكفكفن من
 سمات السخرية لأن إعلانها فيه من المرارة الكثير الكثير
 واخيراً نريد أن نلفت نظر قارئنا الادبيات، أننا حين نذكر
 بعض معاصراتنا أو من قبلهن من قريب، لا نحاول من وراء ذلك
 ما يحاوله بعض السكتابين عادة، من صلات وصلات ، لاننا لانعيش
 على حساب الكتابة والتأليف ، بل بأعمالنا الخاصة ، التي نجد لها
 طوال النهار ، وشطراً من الليل ، وإغماً الذي نحاوله قبل كل شيء
 وفوق كل شيء ، هو الجهاد في سبيل الحقيقة والواقع ، والدعوة
 إلى الانسانية والنهوض ، بالمعرفة والعلم والتفهم والتواد بين أبناء
 الانسانية ، والذي نريده أيضاً، هو إنصاف المجاهدات اللاتي قدمن
 جهوداً مشكورة ، وأعمالاً إنسانية مبرورة ، وغمطها حقد
 الحاقدين وجهل الجاهلين وعدم الانصاف والاعتراف بالجميل .
 ونحن لانذكر ذلك قولاً ، بل عملاً ، فقد استطردنا في كتابنا
 « دين ابراهيم » وسواء من مؤلفاتنا ، لكثير من المعاصرين ، في
 الشرق والغرب ، ولكننا لم نرسل لأحد منهم نسخة واحدة ، ولم
 نفكر في ذلك

ويشهد الله أننا حين نكتب ما نكتب ، لم يكن ذلك لفراغ
ننعم فيه ، أو وقت ميسور نجده ، أو رغبة في التعرف لأحد ،
وانما ننتزع ذلك في سبيل المصالح الانسانية العامة ، من ساعات
راحتنا القليلة التي تفرضها الصحة انتزاعاً ، ونحن احوج ما نكون
لها لو كنا نؤثر شيئاً من الراحة ، ولكننا نعلم أننا في عصر ، من
يستطب فيه الراحة ويخلد الى الدعة فقد أفسح طريقاً للقضاء على
سعادة الجميع .

وما كانت الراحة تعد جناية منكورة ، يجب على الأمة والدولة
أن تناهضها بصراحة وعنف ، في عصر كهذا العصر ، الذي ينتظر
فيه العالم الفاجعة الكبرى التي لا تبقى ولا تذر .

واخيراً يطيب لنا أن نعلن قارئائنا المثقفات الناهضات ، أننا
اعتزمنا أن نجعل خاتمة كتب سلسلتنا هذه ، محلاة باصدار كتاب
خاص ، في تراجم شهرات عصرنا المجيدات ، حفظاً لذكراهن من
الضياح ، وإفادة للأجيال وأداء الواجب لجهادهن واخلاصهن
وانسانيتهن ونشاطهن . وإننا نرجو منهن أن يبادرن بموافاتنا بكل
الارشادات والمعلومات والوثائق ، سواء عن أنفسهن ، أو عن
يتصلق بهن ، ممن يهمن أمرهن ، ويرين من الغبن والحسارة اهدار
سيرهن

ويطيب لنا أيضاً أن نعلنهن أنه ليس من ديدننا أن نفتن
بالمظاهر البراقة الطنانة أو نخدع بها ، وننساق وراءها ، بل كل
ما يقفنا ويحفزنا إلى العمل والتضحية والتقدير والاعجاب ، هو
الواقع والحقيقة . فأية قارئة قامت بعمل مجيد في المجتمع الانساني

- مهما ضؤل في عينها - فلدبنا وثائقه، فقط نستزبد الحقيقة والواقع ثقة ووضوحاً ، وهذا طبعاً لا يكون إلا بحسن معونتهن ، وجيل مساعدهتن ، حتى تستقيم التراجع ، على أوفى حظ من العلم والتحقيق والفن ، وعلى أوسع ما يمكن أن تكون المعرفة ، مستقصية كل أهداف العصر الحديث . إذ نعتقد أنه من الاجرام ، إهمال هذه الناحية ، في تاريخ حياة المرأة العصرية ، التي ادخرت قواها - وجهودها ، وكل امكانياتها للجهاد والتضحية والسمو بالتربية المنزلية العالية ، والسهر على تثقيف الاجيال الناشئة ، وإنا منعنى بذكر سيرهن ، وإن لم تعن بها الصحف المأجورة ، وهذا ما تعاقدا عليه ، وكل قصداً من وراء ذلك ، أن يكون ذخراً للاجيال واسوة حافظة للقيام بالواجبات .

وإنا نستبيح الأخوات النبيلات ، اللاتي نوهن في الصحافة والاذاعة (١) بمنافع هذه السلسلة ، إذا نحن قبلنا ذلك منهن معلنين أن جهادنا وجهودنا ، لم تكن من غاياتها غير جليل الأثر الذي يهنا جدّاً تركيزه في حياتهن الكريمة ولكن ما امليلة ، وشيم الكريما النبيلات الكرم ، وشيم الأدبيات المثققات تقدير القيم .

(١) نجدنا نعلن قبولنا تلك المحاضرات القيمة التي نوهت بها الادبية المفكرة ، الاخت الآنسة « هنريت سيكسيك » في اذاعة الشرق الادبي ، لأنها جاءت آية على عميق إيمانها بضرورة الاصلاح والنهضة ، وهذا كل ما ننشده فيما نكتب .

المرأة والسلام

السلام هدفُ الشرائع والقوانين ، ورجاء الإنسانية
الغارقة في دماءها ، تحت زلازل الحروب المدمرة ، وعواصفها
المبيدة ، ولهبها المستطير .
وهل للإنسانية من حياة مطمئنة لا تنقض ، وأمن
مبسوط لا يطوى ، وعيش خصب لا يعجل ، وسعادة رافقة
ذات أطياق فتانة ، وأحلام مسحورة إلا بالسلام ؟
وهل تتفجر الدماء وتمزق الوحدة الإنسانية إلى أشلاء ،
إلا من طغيان غريزة حب البقاء . ؟ ، وقديما قيل : « من
مأمنه يؤتى الخذر » ، وإلا فالسلام والبقاء شيء واحد ، ولن
يكون بقاء بغير سلام .
وفي الواقع يجب أن نسمي غريزة البقاء ، غريزة السلام ،
ولكن الذي أدى بالإنسان إلى استعمال غريزة الدفاع عن
السلام ، إلى القضاء عليه ، هي غريزة حب النملك ، طبعاً ،
غير المهدبة ، أو غير المكبوتة ، ولو استطاع الإنسان ، أن
يهذب طغيان غرائزه الطبيعي ، أو يكبتها بالشرائع والأديان ،
لما كان ثمة حرب ، ولا عدوان ولا أحقاد .
وإذا كان التهذيب الطبيعي غير ممكن ، لأف أموره
عضوي يقتضي تطورات آلاف الأجيال ، حتى يكون ، فإن
الكتب ممكن دائماً ، وقد كان قبلاً ، أجل كان بالذبح (١)

وكم من أخطاء نفترفها ، حين نطلب إلى الفرائز نفسها ،
أن تكف عن الطغيان ، مع علمنا أنها مسألة عضوية
طبيعية ، إنما يجمل بنا أن نفرض هذا الطلب على العقل المربي
والفكر الناضج ، على أن قارئتنا سيجدن توضيح ذلك ،
في كتابينا الخامس والسادس ، اللذين خصصناهما لدراسة
حياة المرأة في الفرائز والعواطف ، وتربية المجموعة النفسية ،
ومدى تأثيرها في إمكان تهذيبها شيئاً فشيئاً على تطور
الاجيال .

والذي أخذنا على عاتقنا بسطه هنا ، هو استقصاء تاريخ
طبيعة المرأة السامية ، وذودها عن السلام ، وعملها المباشر
فيه ، وإنا نعلمها كلمة صريحة : «لولا تحكم الرجال في نظم
التربية ، وفرض قسوتهم في البيئة والمدرسة والمنزل ، بغير
رحمة أو هوادة ، لذافت الانسانية نعيم السلام ، على يد
المرأة منذ أجيال بعيدة » .

هذا العقل الانساني العبقري الاجتماعي ، يعلن في شتى
أدواره ، أن المرأة تمثل السلام المقدس ، وأنها إذا لم تكن
هي السلام ، في نفوس الاجيال ، فلا سلام أبداً ، ولا
كلام فيه مجدي .

والمرأة هي الانسانية العليا ، والسلام لا يكون إلا في
جهنتها ، (١)

(١) فيكتور هيجو

« إن الاميال الطبيعية في المرأة ، يمكن أن تحول إلى الاخاء العام والسلام العام » (١)

« أعد المرأة رمزاً مجسماً للسلام والتسامح » (٢)
« أعظم مخلوق هي المرأة ، إذا عرفت قدر نفسها » (٣)
وأقوال الفلاسفة والعلماء والأدباء ، جد وافرة ولا ريب أن الوحي الالهي ، أحدث آثاره العالمة ، في توجيه العقول إلى أعجاز السلام ، إلى حسناته ومنافعه العامة ، إلى بركاته ونوره ، إلى جليل مكانه وكبير فضله .

وإذا كانت للإنسانية جمعاء ، تعلم يقيناً أن السلام سوف يكون عاماً وطبيعياً وحنناً في الجنة (٤) ، فإن خاتم الانبياء صلوات الله وسلامه عليه ، يفهمنا بطريقة عملية واضحة محسوسة ، أن السلام ممكن أن يكون واقعياً في عالمنا هذا ، وواقعته على طرف اللثام .

أجل هو تحت اقدام المرأة ، إذا أحسنت تربية الجيل الجديد ، وغرست في نفسه الرحمة والتسامح ، والنزعة السامية

(١) هربرت سبنسر

(٢) بوذا

(٣) غلادستون

(٤) قضية الجنة ، أو العالم الثاني ، هي قضية البشرية منذ خلقت ، وقد بسطنا حقيقة الايمان بها واتفاق اهل الاديان جميعا . والفلاسفة وسواهم ، في سلسلة الوحدة الدينية ، الكتاب الاول «دين إبراهيم»

الكرمية ، إذ يقول : « الجنة تحت أقدام الامهات »
وواضح أن المقصود من الجنة هنا ، السعادة ، وهي
لأنكون إلا بالسلام ، لأننا لا نشاهد تحت أقدام الامهات
إلا الارض ، وكل من بلاغة رائعة ، ودقة بالغة في التعبير
بقوله « تحت ... » إذ فيه الواقع الملموس المحسوس ، وذكر
الافدام يفيد منتهى الطوعية والامكانية ، فما كان تحت
قدمك ، فسلطانك وإمكانياتك فوقه بلا ريب .

وما خص رسول الله ﷺ ، ذكر الأم هنا ، إلا لأن
المجد الانساني الخالد ، يتجلى في الأمومة ، التي هي طبيعة
لكل امرأة ، والأم بعد ، هي المدرسة الأولى ، التي تهيئ
على مجموعة الطفل النفسية ، من قبل أن تفسدها أوضاع
التربية ، المنكوسة المهووسة ، في البيئة والمدرسة .

وإلى قارئتنا نقدم نداء الوحي الالهي للانسانية جمعاء ،
في دعوته المقدسة الى السلام العام « يا أيها الناس إنا
خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا
إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ومحال أن يكون سلام

بين البشر ، إذا لم يكونوا مؤمنين بحقيقة التساوي ، في
صميم الحياة الانسانية ، كما هو محال أن يكون التعارف المتروض
بين الشعوب والأمم ، بغير السلام والثقة والطمأنينة ،
وهيئات هيئات ، أن يكون الحرب وسيلة للتعارف والتفاهم
والتواد .

نعم ، إن دخول الناس جميعاً تحت راية السلام فريضة

الهيبة ، على الناس جميعاً » يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة . وكم في البشرية من ظلم وعدوان ، تؤمن بكلام الله ، ولكنها تأبى أن تطبقه عملياً ، وتكبت به غرائزها ، لأنها موبوءة بأحقاد التقاليد ، ووراثات العصور الحجرية ، ومثقلة بالسخافات والوضاعة ، وقليل هم الذين يصنعون السلام بإيمان وتضحية ويشيدون ببناءه ، ويجسسون أنفسهم لنصرته وتأييده والدعوة إليه . ولقلتهم أشار سيدنا المسيح ، صلوات الله عليه ، إلى انهم أهل البركة واليمن ، أينما حلوا وفي أي مكان نزلوا « طوبى لصانعي السلام » (١)

ولا ريب أن وجود الأنبياء في الأرض ، هو انتصار للسلام ، وقضاء على العدوان والمعتدين ، أما ترى الملائكة تنمت ليلة ميلاد سيدنا المسيح بقوها « وعلى الأرض السلام » (٢) وتراه يقول « سلاماً أترك لكم » (٣) « ليكون لكم في سلام » (٤)

وهكذا كله لا يناقض قوله « لانظنوا أنني جئت لألقي

(١) مت ٥ - ٦

(٢) لو ٢ - ١٤

(٣) يو ١٤ - ٢٧

(٤) يو ١٦ - ٣٣ ، أي في اتباعي والاستمسك بهديي والسير على

طريقي

سلاماً بل سـ يفاً » وهكذا قوله (١) « ومن ليس له
 - أي سيف - فليبع ثوبه وليشتري سيفاً » (٢) ولا سماحه
 لتلاميذه أن يخرجوا إلى جبل الزيتون ومعهم سيفان ، ولا
 إجازته في أول الأمر لحواريه القديس بطرس أن يضرب
 بالسيف . ولولا أن سيدنا المسيح تدارك الأمر حين رأى أعداءه
 كثراً ومسلحين بعد أن ضرب بطرس ، فأمره بالكف ،
 وسارع إلى رد أذن عبد رئيس الكهنة التي بتت ، لقضوا
 عليهم ، ولا قوله « أما أعدائي أولئك - يعني اليهود -
 الذين لم يريدوا أن أملك عليهم ، فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم
 قدامي » (٣)

أجل ، إن هذه النصوص ، وسواها على كثرتها في العهد
 الجديد ، لها مواردها الخاصة ، وملابسها التي اقتضتها ،
 ومناسباتها الخاصة ، بل لا يكفون عن محاربتها ، ظلماً وعدواناً ،
 وإن كان في ذلك هلاكهم « كالباحث عن حقه بظلمه »
 فأمثال أولئك المعتدين يصدون بالقوة ، لا للانتقام والتشفي
 من الرسل « لا سمح الله » ولكن للتأديب وكف الأذى ،
 والمحافظة على السلام وبسط ظله .

وكم هم ظالمون ، أولئك الذين لا يكلفون أنفسهم ، أن
 يفهموا موارد النصوص الدينية وأسبابها واتجاهاتها ، فهماً

(١) مت ١٠-٣٤

(٢) لو ٢ ٣٦ إلى ٥٣

(٣) لو ١٩-٢٧

علمياً عميقاً مستوعباً ناقداً ، بل يكفرون بها ، ويتهمون
الرسول ، صلوات الله عليهم « بقصد الخداع وحجز الحريات
وما علموا أن وهن معرفتهم وضيق تفكيرهم وتعرج فهمهم
والتواءه دون المقاصد الانسانية السامية ، التي تهدف اليها
النصوص المقدسة ، هو الذي حال ما بينهم وبين معرفة
الحق والهدى .

ومثل هذا العلم الناقص المبتور ، والفهم الفج الحاذ ،
هو الذي جعل بعض المطالعين ، ينسون مؤتمرات قريش (١)
لاغتتيال صاحب الرسالة ﷺ ، مع علمهم أن يده ويده
أصحابه مكفوفة عن أن ترد عدوانهم بالمثل ، بل نسوا
أن الاذن بقتالهم ورد عدوانهم ، لم يجيء إلا بعد أن تضخم
الامر وربا ، وأصبح خطراً على مصير الدعوة الالهية وابلاغها
للناس .

أجل لم يأت إلا متأخراً ، أي بعد الهجرة « أذن
للذين بقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، (٢)
وجاء مقيداً بالمثل ولدى العدوان فقط « وقاتلوا في سبيل
الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا » (٣) على أن الصنف
والمغفرة هما المقصودان في الوحي الالهي على كل حال

(١) سورة الانفال آية ٣٠ راجع للتفسير

(٢) سورة الحج آية ٣٩

(٣) سورة البقرة آية ١٩٠

« وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور » (١)

وهكذا ترى رسول الله ، يقا تل في موطنه ، وتقتل أصحابه ، ويشج وجهه وتكسر رباعيته ، (٢) فلا يحقد ولا يلعن ، بل يرفع يديه إلى السماء حين طلب إليه أن يدعو عليهم قائلاً « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » . هؤلاء هن قارئتنا ، رأين أن الأديان تقيم دعائم السلام ، وتدعو إليه في صميم تعاليمها ، كما تنزل اللعنات على الظلم والظالمين ، الذين يكونون سبباً في إراقة الدماء والحراب والدمار ، وتتوعدهم بسوء المصير ، في الدنيا والآخرة ، ولا ريب أن للمرأة إيمانها العميق بجلال الوحي الإلهي ، والدعوة إلى السلام ، باخلاص وصدق وجهاد وتضحية ، ولا يفتق من قدر المرأة ، أن جنوحها للسلام والخير والهدى طبعي في أهل تكوينها ، بل غاية في الطبيعية - كما يقولون لأن هذا مما جعلها الأمل المنشود ، والرجاء الفذ ، لحقيقة السلام في كل العصور ، وهي لذلك ، تستمتع بالتاريخ

(١) سورة الشوري آية ٢٩ إلى ٣٠

(٢) آل عمران ١٥٣ راجع تفسير هذه الآية بجميع التفاسير

منذ أقدم الاجيال .

فهذا السفاك الطاغية الحقود « هيروودس » الذي كان أكبر عدو للسلام ، لم يدع بيتاً في « فلسطين » إلا وأراق فيه الدماء ، وما رأى التاريخ قبل « نيرون » طاغية جباراً يلذ له القتل ، حتى بعد هلاكه مثل « هيروودس » الذي يوصي وهو في سكرات الموت ، أن يقتلوا كل من في السجون بعد موته ، ليجعل يوم هلاكه ، يوم حزن شامل ، ويفقد الفرح الذي لا بد أن يكون في كل بيت ، ولولا أن تداركت الامر حال موته ، اخته المهدبة الادبية نصيرة السلام ، وعميدة الضعفاء ، وأصدورت أمرها باطلاق جميع المسجونين ، لما كان ليوم موته ، ذلك الفرح العظيم الذي فاض مزدوجاً في كل بيت من بيوت فلسطين . (٢) فهذه امرأة واحدة استطاعت أن تنقذ جموع أولئك المسجونين من الهلاك المحقق ، وأن تضاعف مسرة الضعفاء الموتورين في البلاد المقدسة .

(١) المشهور أن نيرون قاتل بطرس وبولس ، ولكن ابا الريحان البيروني يرى قاتلها « كلودبوس » ، راجع تاريخه ص ٩٣ طبع لايبسك عام ١٩٢٣ ، وتاريخ الاصلاح اللوثري ينكر ذهب اب بطرس لرومية ، ويراه ذهب لبابل راجع ص ٨ و ١٨ ج ١
(٢) هيروودس الكبير ، هو الذي أمر بقتل الاطفال استناداً لرأى مجوس الشرق ، كي يشمل القتل المسيح ، راجع ترجمته بتوسع في قاموس الكتاب المقدس ٢-٩٥

وهذه ابنة أوس بن حارثة الطائي ، الفتاة البدوية الفطرية التي لم تدخل مدرسة ، ولم تتلق علماً ، ولم تعتنق ديناً ذا تعاليم سلمية سامية ، بل كانت تعيش في جو جاهلي صاخب ، مليء بالتكر والتباغض ، والشتات والتفرقة ، تأبى لها فطرتها الطبيعية السلمية ، بعد أن اقترنت بالزعيم الثرى « الحارث بن عوف » أن تدعه ينعم بمفاتن الزواج ، ويستنم إلى الدعة والطمأنينة ، والحرب الضروس تأكل جاهلي العرب أكلاً ، وتحطمهم تحطيماً وتقضي عليهم تبعاً .

ها هي ذي تقول له ، بكل صراحة وجراحة ، بعد أن رفضت ، أن تضع رأسها على وسادته ، قبل أن ينهض بالسلام بين المتقاتلين : « والله لا يجعل بك هذا ، والدماء تسيل والنساء ترمل والاطفال تيت ، إذهب فاصلح بين عبس وذبيان تحرز الشرف وحسن الاحدثة » . وهكذا كانت هذه الفتاة البدوية ، ذات الفطرة السلمية النبيلة الوادعة ، منار هدى وعلم وخير وسلام إذ بسببها قضي على حرب دامت أربعين عاماً .

وقد تحمل زوجها الديات ، بعد أن أتم الصلح (١) وكفكف الدماء ، ورفف طائر السلام وتذوق الجميع لذة البقاء والامن والاخوة ، وشيئاً من معنى الانسانية ، حتى أن الشاعر الكبير زهير بن أبي سلمى ، بارك هذا العمل المبرور

(١) محاضرات الحفري ١-١٩

الحالد في معلقته .

تداركنا عبساً وذيبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منثم
وإذ كان ذلك السلام ، نتيجة تأثير فتاة من بنات الجاهلية
في زوجها ، فكيف يكون حال الانسانية ، لو اجتمع توجيه
كل نساها ، إلى جلال السلام وتأيينه في العالم ؟ . نوكد
أنه لن يظل نمة شبح رهيب مدمر لحرب .

وهذه الهاشمية النبيلة « أم هاني ابنة ابي طالب » ،
تجبر عدوا لدودا لابن عمها رسول الله ، وهي تعلم أن ضيق
عظنه ، أفضى به إلى إعلان حرب على الدعوة الاسلامية ، وأنه
لم يدع شراً أو نازلةً استطاع أن ينزها بالنبي صلى الله عليه
 وآله وسلم ، إلا فعلها . تجبره على الرغم من أخيه البطل
العظيم علي بن ابي طالب عليه السلام ، فيكبر رسول الله
 صلى الله عليه وآله وسلم ، هذه الروح السلمية الكريمة ، التي
يرجوها لكل امرأة في العالم قائلاً للانساء والتشجيع « أجرتا
من أجرت يا أم هاني » . (١)

وهذه عاتكة بنت يزيد ، زوج عبد الملك بن مروان ثور
ثأرتها ، غير مكتوفة لسخطه ، ولا حاسية لانتقامه أو بطشه
أي حساب ، على ما تعرف من إسرافه في الانتقام والبطش
ثور محتجة ساخطة ، حين تراه يأمر بنصب رأس مصعب بن
الزبير في شوارع دمشق ، وتأمر بانزله حالاً قائلة : « هذا

(١) اعلام النبء ٣-١١٢١

(١) اعلام النبء ٣-١١٢١

بني وعدوان ، وقد فهمت أنه عملاً بربرياً كهذا يورث
الآفة اء والضغائن ويشعل نيران الفتن والحروب ، وينزل
السلم وينذر بانطفاء حياة الدولة .

نعم هي أموية صميمة ، وابنة يزيد !! وتعلم أن مصعبا هو
العدو اللدود ، الذي يعمل لهدم الدولة واستلاب الملك ، والفتك
بأسرتها ، ولكن ما حيلتها والمرأة في كل عهد ، وفي كل
بيئة ، وفي كل دين . هي هي ، حامية السلام المقدسة ، التي
تترف على سخافات البشرية وأحقادها ، وخصوماتها الوضيعة ،
بأجنحة السلام البيضاء المشعة حنانا وإنسانية وتسامحا ورحبا (١)
وهذا حاكم مقاطعتي الجزيرة وشاطئ الفرات الشامي ،
وقائد الطلائع المرباطة على تخوم الروم « جبال طورس » ،
عبد الله ابو الحسين الانطاكي الأموي ، يركب جواده مرة
ليتفقد النواحي ، ويرصد الابعاد بنفسه ، فيتوغل به حب
الاستطلاع والكشف والمغامرة ، إلى أحراج الروم ومروجهم
وأرباض مدنهم ، وينزل في مرجة ليستريح من الجهد العنيف ،
ويلذ له منظر بقلة ، فيقتطف بعض وريقات منها مستطيبها ،
ولكنه لم يلبث غير قليل ، حتى نهالك في مكانه ، ولم
يستطع التماسك لانفراط معدته ، فخشى الهلاك إن لم يسارع
في العودة ، وما كاد يمتطي جواده ويسير بنفسه قليلا ، حتى
ارتقى عليه ، وأمسك برقبتة ، ولم يبر نفسه إلا في أحد أديرة

(١) راجع ابن الأثير ٤-١٦٢

الروم المنتثرة هناك ، وحوله جمع من الراهبات يقمن على معالجته وتخفيف آلامه .

وهكذا ظل أبو الحسين في ذلك الدير مغموراً بالعناية والتلطف أياماً ثلاثة ولم تعلم القيادة الرومية بوجوده ، مع علم الراهبات به ، فهو معروف لدى الجميع بغزواته ، ولولا مقدم احد قواد الروم إلى الدير ، لما علم به أحد ، ومع ذلك فقد أخفته أولئك الراهبات المسلمات المحسنات ، وبالفن في إخفائه مما جعل القائد الرومي ينصرف مغيضاً ، (١)

فكم تكشف لنا هذه القصة من حب السلام المتغلغل في قلب المرأة ، فهي تضحي في سبيله ما تضحي

وهذا تاريخ طلائع الدولة العباسية ، يرسل على ذكريات أم سلمة المخزومية ، أطيب حمده وإعجابه فكم مرة كفكت يد زوجها « أبي العباس السفاح » ، وحذرت عاقبة الدماء التي يربقها ، ولولاها لما علم إلا الله ما كان يتم على يديه من ضحايا ، إذ كان مستعداً ، بطبيعته القاسية الجبارة ، وسوء نيته للفتك والبطش . (٢)

وهذه السيدة « ليبي » زوجة الفاتك الطاغي ، « تيمور » الأعرج » ، تأبى كل الإباء ، أن تنعم بطيب العيش ، ولذة السلطان والملك ، ودماء ضحايا زوجها تسيل ، فتأخذ في

(١) كان ذلك عام ١٢٢ هـ . ابن الاثير ٥-١١٧

(٢) وظائف الأثاث ١٥ والدر المنثور ٥٨ ، وقصص العرب ٢-١٥٥

إسداء المبرات ، وتقديم الديات ، لكل من فتك به زوجها ظلماً وعدواناً ولا ريب أن روحها السلمية هذه المتساحة ، البرة اليقظة الحرة ، هي التي ذلت نفسيات قومها المتحجرة الجراء ، وأعدتها لاعتناق مثل الانسانية السلمية العليا ، التي أوحاها الله إلى خاتم أنبيائه . كما وجهتهم عملياً لفهم أخطائهم ، في إصرارهم على عداوة هاتيك المثل ، التي ما أوحاها الله ، إلا لاسعاد أمثالهم وتهذيبهم ، والسمو بهم إلى الاجساد ، والانسانية والمعرفة والتسامح والانطلاق ، من ظلمات التقاليد الوثنية الرعناء ، شأن الله في وجهه كافة .

وكم حفظ الدهر لهذه السيدة من يد ، حين جعل قبرها قدساً من الاقداس ، يزار في « سمرقند » حتى اليوم (١) وهذا زعيم من زعماء حلب ، ينفت عليه الملك الناصر ، مكانته المرموقة ووفرة أتباعه ، فيصادر أمواله ويحاول البطش به ، فيفر هو ورجاله إلى الزعيمة البدوية المشهورة « أم الفضل زوج الامير مهنا بن عيسى » مستنجداً مستجيرواً ، فما تسكاد تراه وتعرف الحادث ، حتى يرفرف في فؤادها طائر السلام ، فتطمئنه بالنصرة والمعونة وتحسن وفادته وإكرامه ، وما يسكاد يشوب زوجها مساء حتى تفاجئه بطلب التجهيز ، والسير حالاً إلى حلب ، وتخليص أمثال هذا الزعيم المظلوم ، بيد العسف والاستبداد وإقرار السلام ، فينادي ابن عيسى

(١) مركز المرأة في الاسلام ١٢٧

في جبوشه ورجاله ، ويجتمع عليه منهم خمسة وعشرون ألفاً ، ويحاصرون حلب ويتوعد الملك بالحرب إن لم ينزل على إرادته ويكف عن الظلم والاستهانة بالشعب ، ولكي يلقي الرعب في قلبه ، يأخذ في حرق باب القلعة ، فلا يسع الملك إلا أن يسارع في إجابة الطاب ، ويصدر عفوه عن الزعيم ، ويرد له أمواله المصادرة . (١)

كل ذلك قد كان بتوجيه أم الفضل ، وكبير عنايتها بالسلام ، والانتصار للمظلومين ، والضرب على أيدي الذين يشعلون أسباب الحروب والفتن ، ويجرّسون على سلامة أنفسهم ويجعلون سوام لها وقوداً ورماداً .

وهذه السيدة الفاضلة والزعيمة اللبنانية المفكرة « نظيرة جنبلاط » أحست أن في لبنان أصابع دخيلة تحاول أشعال الفتن بين أهله باسم « المسيحية والمحمدية » والقوم في عصر النور والعلم . فقامت في بلدة « المختاره » (٢) وأصلحت ما بين الأمة الواحدة ، بعد أن كاد الاشقياء يشعلون بين طوائفها الفتن الرعناء وكانت برداً وسلاماً على الشعب اللبناني المجيد وقد تكبت التربية الفاسدة الضيقة ، بأحقادها وظلماتها وصغارها ، نوازع السلام في نفس المرأة ، فتثور وتنقسم وتبسط وهي تلبس رداء غير رداها ، وتمثل دوراً غير

(١) مذهب رحلة ابن بطوطه ص ٦٢

(٢) مجلة « المرأة الجديدة » ٢-٢٩٣

دورها ، ونفسية غير نفسيته ، وتسي حينئذ أداة شر وإفساد
ولكن قارئنا لا يجد ذلك في تاريخ المرأة إلا صدفة
منكرة ولطخة عابرة .

هذه « البسوس ابنة منقذ التسمية » الشاعرة المحاسية ،
استطاعت أن تشعل بأبياتها حرباً عوانا استمرت أربعين
عاماً لابن شعيبين مختلفين من أبناء الانسانية ، ولا بين
قريبين من أبناء الشعب الواحد ، ولا بين أسرتين من أبناء
القبيلة الواحدة ، بل بين أبناء أسرة واحدة ، اسعرت الحرب
بينها إلى أن تناوات القبيلة فالقبائل .

أجل ، أشعلتها ، وما أشعلتها إلا لأتفه الاسباب وأحقرها
أشعلتها لئلا لها قتلت !! ها هي ذى توقد شرارة الفتنة
الاولى بقولها :

لعمرك لو أصبحت في دار صاحب
لما هين سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غريبة
متى يعدُّ فيها الذئب يعدُّ على شاني
فيا سعد لاتفرر بنفسك وارتحل
فانك في قوم عن الجار أموات

وقد فطن الناس إلى شرها ، وشؤم طالعتها ، فضربوا بها المثل
في شؤم الطالع وقالوا : « أشأم من البسوس » (١) ولعلك لاتلمح

(١) كتاب « الامثال » للميداني ، حرف الهمزة (٢)

شبهاً بغيضاً جهنمياً بين بنات حواء ، كانت شراً وبلاء
على الانسانية ، من هذه المرأة الشريرة .
والانسانية مدركة منذ أسحق أجيالها ، أن المرأة ملاك
السلام ، وطيف تمثاله ، وتزينة تخنانه ، وآية هداه ومضرب
أمثاله ، فهم يصورونها إشعاعاً للعقل وأحلاماً للرحمة الممنجة .
وقد ظلت هذه العقيدة ، تهيم بواعثها في مسكان
الوراثات ، وتنقل من جيل إلى جيل ، حتى أن ملوك مصر ،
في عصر المماليك ، كانوا إذا اصدروا حكماً بالاعدام ، نلى
مجرم أو فاتك ، وتيسر له مس ثوب امرأة من نساءهم حرم
إعدامه ، (١) كانوا مسته بركات السلام ، وأظه طائر الامن .
وشاهدنا في أسبانيا ، الملك « جاك الثاني » يفتن إلى قداسة
المرأة متأثراً بالعادات العربية ، فيصدر أمره محرماً أن يجز
الرجل الذي يسير بجانب امرأة ، معها كانت جنايته ، إلا اذا
كان فاتكاً خطراً ، إذ إمساكه حينئذ ، من أسباب الامن
والسلام . (٢)

والتاريخ الاوربي ، طافح بأبجاء النساء الساميات العظيمات
قديمًا وحديثًا ، ولو طاوغنا أنفسنا واستوسلنا مع إعجابنا
بهن ، وحماستنا لهن ، لالتهم فصل السلام هذا ، كل الكتاب .

(١) كتاب « لمحة عامة إلى مصر » تأليف ا. ب. كلوت بك ١٢١

(٢) المرأة في التمدن الحديث ص ١٧

وحسبنا أن نكبر الملكة « فيليبيا » زوج الملك « ادوار الثاني » وموقفها السلمي العظيم ، بعد حصاره مدينة « كاليه » الفرنسية ، حصاراً خانقاً جباراً ، وبعد رفضه أن يفك حصاره إلا بتسليم ستة اشخاص ، من غيرت زعمائهم ، تأديباً وزجراً لهم ، وقد تطوع خمسة من الزعماء المختصين لافتداء المدينة بأنفسهم ، أما السادس ، فقد اختاروه بالاقتراع ، فما كان من « فيليبيا » حين اصدر زوجها أمره باعدامهم ، إلا أن ثارت ثائرتها ، وعارضت محتجة ، بأن رجالاً شرفاء يضعون بأنفسهم في سبيل إسماع الجماعة ، خلقي بهم الاكبار والاجلال وكان اطلاقهم ، وإرسال ظلال السلام وإطيافه عليهم ، وعلى المدينة ، إشعاعاً من أضواء روحها الكريمة ، ونزعها السلمية الخيرة ، وصمو مثلها الانسانية العليا . (١)

ولم تكن « كاترينا » زوجة « بطرس الأكبر » بأقل من « فيليبيا » عقيدة بجلال السلام ، وضرورته للحياة الانسانية ، ومقتها للطغيان ، ونفورها من إراقة الدماء ، مهما كانت الاسباب قانونية مبررة .

انظر اليهسا ، وهي تناقش زوجها الأمبراطور بحماسة وصراحة ، لدى محاولته تصديق حكم الاعدام ، على زعماء المؤامرة العشرين ، الذين فشلوا لدى محاولتهم اغتياله ،

(١) كان الحصار عام ١٣٢٧ ، أبان حرب المائة ، راجع كتاب

« سعادة الزوجين » ص ١٥٩

وقد أمسكوا . وهي تقول ، بمسكة بيده : ما هؤلاء بظالمين فعلاً ، وإن قصدوا إراقة الدماء ، ! ! لأنهم لم يتمكنوا من ذلك ، فإن فعلت أنت ما عجزوا عن تنفيذه ، كنت الظالم في الواقع ! . تفكر ملياً ، أما ترى نفسك بجرة قلم ، هدمت عشرين أسرة وما وراءها ، بقتلك هؤلاء . ما أنا بظالم ، إن القضاء العدل أداهم ، وما في إدانة القضاء العدل من ظلم .

لا لا ، إن إدانة القضاء لا تكون قانونية نافذة ، إلا بتصديقك أنت ، فانت المسئول الاول عن إعدامهم ، وهيات هيات ، أن تشوه جمال عدلك الانساني ، بدم قوم أجرموا نية لا عملاً .

وهنا يحتاج الامبراطور في وجهها ساخطاً ، ويضرب المرأة بجمع يده فيعطمها ، ثم يبدأ فتقول له : إنك بغضبك هذا ، شوهت قصرك ، وهو خير الف مرة ، من تشويه ملكك ، وحينئذ يصدر عفوه عن المجرمين ويسمح باطلاق سراحهم ، فيقف التاريخ المجيد ، يسطر هذه الحادثة السامية ، في أرفع صفحاته بأحرف من نور ، تقرأها إلى اليوم باعجاب مرددين : عاش السلام وعاشت ذكرى كاترينا للسلام ، (١)

(١) هي التي غيرت بدهائماً مجرى الحرب الطاحنة المستعرة بين روسيا وتركيا عام ١٧١١ ، راجع كتاب سعادة الزوجين ١٥٧

المرأة والمنزلة الاجتماعية

لم يكن بين الذكورة والأنوثة في صميم نواميس الوجود من تفاوت ، وهكذا لم يكن بينهما أيضاً من تفاوت في صميم الوحي الالهي المنبثق عما انبثقت عنه تلك النواميس . وإن يكن هناك من تفاوت ، فالما هو في التقوى ، والتقوى عمل اختياري محض ، وحلية ميسورة للجميع ، ما دامت هي صدق الأخذ بهدى الوحي الالهي ، والجد في الوقاية من أفات الاجتماع ، وسوء الخلق ، وضعف الإرادة ، والذاتية البغيضة « الاثرة » .

ولعل قارئنا المتعمقات في الاطلاع ، يتصيد شيئاً من التفاوت ، في بعض الاديان العريقة في القدم ، فيخلنه سقوطاً بمنزلة المرأة الاجتماعية من الوحي ، وما هو إلا إصلاح تطوري ، وسمو تدريجي ، جاء به الوحي الالهي حسب تباين البيئات ، ثقافة وحضارة واستعداداً وأعصرأ ، إذ محال أن يكون الوحي بعيداً عن واقع الحياة وإلا أصبح أحلاماً طائراً ، وخيالات سارحة . ومن هنا يدركن ، أن ما يخلنه سقوطاً بمنزلة المرأة في بعض شروح الكتب المقدسة إن هو إلا إصلاح لسقوط أسطوري كان من قبل الوثنيات ، على أن قارئنا يدركن أن بعض أساطير الوثنيات ، تسربت واندست في هاتيك الشروح ، حتى خيلت لبعض الدارسين السطحيين

الذين أتوا بعد ذلك بأجيال أنها منها ، وما هي منها في شيء وأقرب مثل تجده قارئاً ، هو الاعتقاد السائد في بعض الاوساط السطحية ، أن العهد القديم أباح التضحية الانسانية كالوثنية ، حيث جاء في سفر القضاة (١) أن القائد الاسرائيلي « يفتاح » ضحى بابلته الوحيدة لدى انتصاره على العمونيين وفاء لندره ، وما ذلك من الوحي الالهي في شيء إن هو إلا نذر خاطيء علق في نفس يفتاح من مجاورة الوثنيات ، (٢) وما ذكره في العهد القديم إلا للتاريخ . على أن الله عرف البشرية عملياً ، منذ أربعين قرناً ، بقصة إبراهيم المشهورة لدى تضحيته بالكبش فداء لولده ، أن الانسان لا يضحي به أبداً ، وتضحيته كفر وإثم كبير .

وإننا نرجع بقارئنا القهقري ، إلى عهود الامم القديمة ، ونطلب اليهن أن ينعمن أنظارهن في بقايا الديانة الادريسية وما قبلها ، بين الآثار المنقوشة في أعماق نواويس مصر والصين واليونان فانهم يجدون أن المرأة - على الرغم من طفيليات الوثنيات والتقاليد الطامسة - تستمتع بالمنزلة الاجتماعية السامية استمتاع الرجل من كل وجه ، ذلك لان الوحي الالهي هو هو ، في كل

(١) ١١-٣٠ ونساء الكتاب المقدس ٣٨

(٢) كل الامم المجاورة للاسرائيليين ، كانت تقدم الاضاحي البشرية لاصنامها كعشتاروت وأدونيس ومواها ، كما سيأتي تفصيل ذلك في كتابنا « طفيليات واساطير »

الاجيال والعصور ، وهو يعبر دائماً عن سر الارادة الالهية في كنهه الخلق . وما من تفاوت في الخلق وجودا وعدما ، ولا في مصاييرهم بالنسبة لوضعية النواميس ، لدى الارادة الالهية (١) وعلى هذا فكل ما نكشفه في غيوب النواميس الكونية نستجاليه في صميم الوحي الالهي . فاشترك الذكور والانوثة ، سواء اكان في عالم الذرة ، أو في ما فوقه من عوالم ، يظهر الوجود في غاية كماله ، بالنسبة للملابساته وقيامه بوظائفه المشتركة للابقاء على الحياة الانسانية العالية ، وتطور الوجود الكلي . وهذا خاتم الكتب السماوية ، القرآن المجيد ، يعلن ذلك بصراحة تامة « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » (٢) « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، (٣) وبثّ منها رجالاً كثيراً ونساءً » (٤) فهي هو - الوحدة - هذا هو السر وهذا هو الناموس .

(١) من أحب أن يتوسع في وحدة المقاصد الالهية الموحى بها إلى رسل الله كافة ، منذ أقدم الأزمان إلى اليوم ، فليراجع كتابنا « دين ابراهيم » وما يليه من أجزاء سلسلة الوحدة الدينية في العالم (٢) الملك ٢

(٣) إي من جنسها . فمحو من جنس آدم لا من ضلعه كما حقق ذلك صاحب المنار . راجع كتاب « تستطيع ان لا تمزق » للدكتور عطوي المترجم عن الانكليزية ص ٩
(٤) النساء ١

وها نحن أولاء ، نحس أن قارئتنا يهن بنسب متساويات
 إذا كان الأمر كذلك ، لاتفوت أبدا في منزلة المرأة
 الاجتماعية ، لافي كنه النواميس ، ولا في روح التعاليم الالهية
 فما هي الاسباب التي جعلت المرأة في معظم الاجيال القديمة ،
 وبعض الحديثة ، تنحط هذا الانحطاط الذي لايعود أن يجعلها
 في نظر الجماعة أكثر من آلة ؟ أوامه ، ما هي الاسباب التي
 جعلتها في بيئة تقتل ويهدر دمها ، وفي أخرى لاتملك حق
 صيانة عفافها ، وفي ناحية تحرم من الميراث ، بل تكون هي
 بعض الميراث ، وطورا لايعترف الزوج بأثره في إنبات الذرية
 إلا إذا لذه ذلك ! ! وبالتالي لايكلف نفسه بأية مشقة تجاهها ،
 ولماذا سلب حقها من السماء في شعب ؟ ولماذا قيل عنها
 شيطان ؟ وعلى م تحرق إذا مات زوجها ؟ أو تذبح على رمسه !
 ولم تكون لدى قوم ذليلة ملعونة إذا لم تحمل ؟ ولدى
 آخرين تغرق وحدها إذا أتهمت ، ولم تبرأها الآلهة
 المزعومة . (١)

أوليس مصدر ذلك كله الادبيات والنحل ؟ ! فأن هي
 كرامة المرأة ومنزلتها الاجتماعية ، التي تتغنون بأقداسها في
 سلسلتكم هذه ؟
 مهلا ، مهلا ، يا قارئتنا العزيزات . إلا إن الذي عنا كن

(١) هذه بعض الأمراض التي حطت من المثل الاعلى الذي جاء به الوحي
 الالهي في الادبيات ، وسيبر بك ذلك في مواطنه من هذه السلسلة

وأشعل في أنفسكن حماسة التساؤل ، وجعلكن تثرن مغيطات
 محمقات ، هو ما أغاظنا وأثارتنا من قبل ، كم من حقوق
 هدمتها البشرية شر هدم ، وكم من مثل عليا وطمتها تحت
 أقدامها ، بالله قلن لنا ، متى كانت تقيد أعمالها بآعاليم الرسل
 ولا تنصرف عنها جائرة طاغية ؟ ! إذن فلا تستغربين إن
 رأيتم هاتيك آعاليم المقدسة ، تدفن في أسداف الرموس
 الآثرية ، وتدفن معها منزلة المرأة الاجتماعية ، وتصبح بقسوة
 التقاليد ورعونة الوثنيات ، وحطة الآخلاق على الحال التي
 ذكرتم ، وهل كانت تستطيع المرأة أن تستنشق عبير الحرية
 إلا في بواكير الكتب المقدسة وإشراقات أصباحها ، ثم ماذا ؟
 ظلام ، ظلام ، ! وما زال الحال كذلك ، تتأرجح الشعوب
 بين الاحتفاظ بسمو منزلة المرأة الاجتماعية - في إبان الوحي -
 وبين تهالكها في التقاليد والأوضاع المزرية القاتلة ، وأغلاها
 الموصدة لدى الانحراف عنه ، حتى نادى منادي الآسلام ،
 بآياته البينات المعجزة الخالدة ، واستعاد المرأة كامل حقوقها
 وكبير منزلتها الاجتماعية محتفظاً بكل كنوز الوحي ، وما
 منحها إياه الرسل من قبل ، وذاد عنها آثام الطغمة الاشرار ،
 وضرب عباد التقاليد المهاويس ضربة لم تقم لهم بعدها قائمة .
 ولعل بعض قارئائنا المثقفات ، يسمعن من بعض صغار
 الطلبة المسممين ، ان الوحي الالهي حط من قيم المرأة ،
 فوجأونا أن لا يتعجلن في الرد عليهم ، لأن عذرهم واضح وهو
 ضيق الثقافة ونزور الاطلاع والدس الذي منوا به من قبل

الرجعيين المأجورين .
على أننا سنستقصي في كتابينا الخامس والسادس ، كل
شرائع الوحي ونقابلها درساً ونظراً ونقداً ، بما لدى البشر
من تقاليد وضيعة أو أساطير وثنية ، كي تفقن على كنه
الحقيقة ونفس الواقع ولا تخدعن بتوافه كتابـة السطحين
والذي يعنيكن الآن بعد ما قدمنا من تحليل واستنتاج
فرضه البحث ، أن تتناولن بحوثنا هذه منجبة على العصور
التاريخية .

عصور ما قبل الهجرة

نعتقد أن قارئتنا ، إذا نبشنت دفائن التاريخ القديم ،
وغربلن منزلة المرأة الاجتماعية ، بين ركام أنقاضه ، يجدت
عجبا ، يجدن قوة ومجدا ، يجدن منزلة المرأة فاقت كل منزلة ،
وذلك لأن الوحي منذ تلك الحقب السحيقة ، السحيقة ، أي
منذ عهد إدريس وما قبله وهو يركز مثله العليا في المجتمع
البشري ، وينهض بمكانة المرأة ومنزلتها الاجتماعية فهو
السامي الرفيع ، ولعل قارئتنا تسولي عليهن الدهشة حين
يشاهدن الاجيال التي طرأت عليها الوثنيات ، فأهلت كل شيء
من إنسان وكواكب وجساد وأرواح . . . بالفت وغالت
في المبالغة ، حتى لم تعد الأرض على رحب سهوبها وامتداد
آفاقها خليقة بكل أعجادهن في نظرها ، فوثبت بهن الى
السما وأثزلتهن منازل الالهة ، ولا يعجبن إذا رأين ذلك من

تلك الاجيال القديمة ، فإن الانتكاس عن المثل الأعلى المنزل
من السماء صعودا أو هبوطا ، كان في الأجيال القديمة كجبر
الرحى لا يستقر على حال .

على أن أكثر ما كان الانتكاس في الهبوط ، ولكن
الحضارة والمدنية أحيانا تجعل الانتكاس الصعودي ، وكلاهما
موت وهلاك للجماعة وخروج عن طبيعة الاشياء . وكنه
نواميسها المفروضة لها ، كالذي يريد أن يسمو بالسمة
فيخرجها من البحر فتموت ، أو ينزلها في أعماق الوحل فتموت .
وقارئاتنا إذا راجعن موسوعات الأدبان القديمة ، ومعلمات
الامم الحديثة ، يجدنها طافحة بأسماء النساء اللاتي هن في
المجتمعات القديمة أمثال « معات ونوت وحانخور وإيزيس
وحكت وبوتو . . . لدى المصريين ، (١) ونبات لدى البابليين
(٢) وموكامي لدى اليابان (٣) ومي لنغ شي لدى الصين (٤)
وأفروديت لدى اليونان (٥) وفاطمة بنت أبي مسلم الخراساني
لدى الحرميين . (٦)

(١) تاريخ التمدن المصري ٣٩-٥٤ ومصر القديمة ٢-٦٩ و ١-٢١٤

(٢) و (٣) كتاب « الله » للعقاد

(٤) المرأة في الاسلام ص ٣٠

(٥) مصر القديمة ١-٢٠٨

(٦) نسبة إلى العقيدة الباطنية الحرمية التي تعتقد أن الله روح

يجل في الانسان ، ابن الاثير ٥-١١٩ ومرض أن الله روح يجل في -

وقد تخيل بعض الباحثين ، أنهم رموز لما أومئ اليه من عدل وجمال وخصب وغفة وسعادة ونسيج وثروة وزراعة . . . لانساء عشن حقيقة وكن كذلك ، والواقع أنهم مثلن تلك الادوار التي ألهم من أجلها في حياتهن أروع تمثيل وأفتنه ، فلما توفين عظمتهن الاجيال وبالغت في تعظيمهن ، وعلى تداول الحلقب الهتفن كدأبها في تأليه كل شيء تنفع به أو تحشي شره ، وأقرب مثل ما تشاهدته اليوم من وضع الملكات في أوروبا للبحان وسواه ، غير أننا لانغالي في هذه العصر ، وفي تلك الاعصر المغلاة عادة مشتهرة ذائعة

وإذا تراجعت فارثاننا إلى العصور التي تلت التساريخ المصري القديم ، وأشرفن على بني إسرائيل في مصر أو صحراء التيه ، وجدن مريم ابنة عمران السيدة الصالحة البرة ، التي نوه الله بذكراها في القرآن ، ومجدها العهدان ، وجدنها سامية في منزلتها الاجتماعية ، هموا يفتخرو به مدى التساريخ وأي منزلة أجبل من المنزلة التي افضت اليها حتى اطلقوا عليها اسم « مريم النبية » ، (١) وما نالت تلك المنزلة التي بلغتها إلا ببجدارة واستحقاق ، بعد أن شاركت قومها في أعنف الاحداث أجبل ، ما كانت لتتوارى عن أية حادثة أو فازلة ، وما

أشياء السكائنات من إنسان أو حيوان أو جماد . . . سيأتي مفصلاً مستقصي لدى الامم كافة ، في كتابنا « طفيليات وأساطير » ، (١) سفر الخروج ١٥-٢٠ ومركز المرأة في الاسلام ص ١٢ نقلاً

عن يوسفوس

كانت تقنع لدى الحوادث والنوازل بمشاركة قومها فحسب ،
 بل تغامر وتفكر ولا ترضى إلا أن تكون الاولى في المغامرة
 والتفكير ، وهذه خيمة الاجتماع لا تزال جلساتها تحفل بأجناد
 بجليل افكارها وسامي آرائها .
 وإن قارئنا يتحدث في العصر الاسرائيلي الحكومي ،
 كثيراً من السياسيات المفكرات ، اللاني احزنن في حلبة
 السباق قصصها . ولا تزال تلك الاعصر تستضيء إعجاباً وتغنى .
 فخرأ بأجماد القاضي البارعة السيدة « دبورة » (١) التي ركزت
 بياناتها وآرائها عظمة القضاء وجليل مكانته ، وبخبرتها الحربية
 ومعارفها العسكرية ، أسمى التدريبات الفنية للجيش .
 وهذه الهند العريضة ، تمجد مكانة المرأة الاجتماعية على
 يد المصلح الديني « بوذا » ، وكيف لا يكون تمجيداً أن لا
 يجد من يثق به ، ويسند اليه ادارة الجمعية الاصلاحية ، سوى
 عمته المؤمنة الصالحة السيدة « كوتامي » (٢)
 ولو أن قارئنا تباركن بانعام انظارهن في حياة
 حواريات (٣) سيدنا المسيح ، لشاهدناهن كواكب اجماد على

-
- (١) سفر القضاة ٤ و ٥ ومركز المرأة في الاسلام ص ٩٧
 (٢) مركز المرأة في الاسلام ص ١٣
 (٣) حواريات ترجع الى اشتقاق حبشي سامي كما حققه العلامة
 الاب « مرمجي » في كتابه « المعجمية العربية » ص ١٣ ، ويهدف
 من وراء ذلك الى جلال الاخوة الجنسية بين شعوب الشرق الادنى .

ارفع منازل المنازل الاجتماعية .
 هذه « مريم المجدلية » المرأة الصالحة التقية ، التي باركها
 سيدنا المسيح وحققها أنواره ، وشملتها رعايته ، وثالث من
 الشرف والسؤدد ما سيظل خالداً أبداً الآباد .
 ولعل قارئنا يخلن اننا نبالسغ في مكانتها ، ونسهب في
 الاطراء ، ويشهد الله ما ذاك من دأبنا ، ولكن ايماننا
 بالحققة وتوجهنا الصادق الى تأييدها واعلانها ، هو ما يخلل
 لغير الدراسات المتعمقات ، اننا نسهب او نبالسغ .
 اني تكون المبالغة ، وما هو ذا التاريخ يعلن أن اليهود
 حين اضطهدوا المسيحيين في فائمة الدعوة وضيقوا عليهم أوجه
 الحرثية ، رافضين رأى جبرهم العظيم التسامح « غمالاتيل » (١)
 مترصدين لهم كل مرصد في السامرة واليهودية والجليل ، لم
 يخلصهم من ذلك الاضطهاد ، وينقذهم من الضغط الشديد ،
 ويعيد لتلك الكنائس حريتها ، إلا مريم المجدلية ، ذات المنزلة
 الكبيرة في ذلك المجتمع ، حين ذهبت إلى الامبراطور الروماني
 « طيباريوس » وعرضت عليه الامر ، وطلبت الانتصار للحق
 وإعلان حرية العقيدة ، فسارع في اجابة طلبها (٢) بكل
 اكبار واحترام .

ولا يخلن قارئنا ان « فيبي » اقل من مريم المجدلية مكانة
 ومنزلة وسمواً ، في ذلك المجتمع المقدس ، للطهور ، الذي

(١) ع ٥ - ٣٥

(٢) مركز المرأة في الاسلام ص ١٤

اسمه سيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام ، وتركه كصفحة القمر جلية وضاءة .
 أقل أقل ؟ وكيف تكون كذلك ؟ وهذا القديس العالم المحرر ، والمتسامح والمفكر الذي يزن حالة الافراد والامم بميزان الحكمة ، فيعطي لكل مرض دواءه ، الذي يتم به الشفاء « بولس » .
 اجل بولس نفسه ، بصرح في رسالته التي بعث بها الى رومية (١) بأن « فيبي » فوق انها قديسة وانها مشرقة على كنيسة « جماعة » ساعدت باعمالها البرة ، واصلاحاتها ومنزلتها السامية ومكانتها ، الكثيرين . بل بصرح انها ساعدته هو نفسه ، وكفى بهذا اعترافاً بجليل مكانتها ، وسمو منزلتها ، في ذلك المجتمع المنبثق في فجر المسيحية .

إذئ فحواريو سيدنا المسيح كانوا يكبرون من منزلة المرأة ما يكبرون ، ويعطونها حقها من الاجلال والاحترام ، ويعترفون بتضحياتها وسموها واخلصها ، وما زلنا حتى اليوم نمجّد السيدات البارات « مريم وبوسى وسالومة (٢) » اللاتي كن يرافقن سيدنا المسيح ، في ساعات الفول والخطر غير

(١) ١٦ - ١

(٢) هذه غير سالومة اخت هيردوس وزوجة الكسيس التي مر ذكرها في باب السلام راجع سيرة المسيح للدكتور جورج فورد ص ٦٧

متواريات ولا وجلات (١) .

ومن هنا يتضح لقارئنا أن جهادنا باكتشاف الواقع ،
يرهن منزلة المرأة الاجتماعية في الوحي الالهي هي هي ، منذ
اقدم الاديان الى خاتمة الاسلام . وكان من ضيق المعرفة لدى
بعض الكتّاب ، ما تلقفوه من توهمات الوثنية الرومانية ، التي
استطارت حول كنيسة رومية ، واورييجانوس وهنري الثامن
وسوام : « من أن المرأة شيطان ، وانها لانفس لها ، وأن حرمانها
من المعلم واجب ، وانها لا يصح ان تلمس الكتاب المقدس
كما يجب ان تضع على فمها كمامة . . . »

اجل ، تلقفوها واذا عوها كأنها من الوحي الالهي الذي
جاء به المسيح عليه الصلاة والسلام ، ولاندرى كيف اطمأنوا
إليها ، واجازوا لأنفسهم ان يذيعوها في الشرق والغرب ، على
اعتبار انها منه ، مع علمهم أن سيدنا المسيح نفسه لما شاهد
«مرثا» تبكي اخاها «لمازر» . بحرقه تكاد تقضي عليها ، اسفق
اشفاقا اوجعه ، فما وسعه الا أن يبتهل الى الله تعالى ،
لاحياته لها (٢) وهذا شأنه لدى اتهام المجدلية حتى صرخ في
اوجه القاذفين الآثمين وزجرهم ، واعلن جرائمهم الخفية وراء
مظاهرهم الكاذبة ، بتسطيرها حياهم (٣)

(١) ١٥ - ٤٠

(٢) ١١ - ١٠

(٣) ٨ - ٢ راجع رأينا في امر المجدلية بكتابنا « دين ابراهيم »

ص ٤٣

على أن جميع الاباطيل المذاعة بالامس ، حول الاديان
 الآلهية ، التي انزلها الله لتضميد جراح الانسانية ولم شعثها ، إنما
 أذيعت عناداً وجهلاً ونحاحاً .
 هذا السيد رشيد رضا والمنفلوطي ، ومحمد جميل بيهم وعبد
 القادر المغربي وعبد الفتاح الامام . . . اغضبهم التهمة الباطلة
 التي نسبها الى المسلمين ، مسيو كلوت في قوله : « إن المسلمين
 اختلقوا ، هل للمرأة روح ام لا » (١) ، فكالوا له بالمثل
 وإننا نجد كلا الفريقين المتقاذفين خطأ مرمى الواقع والعلم
 لأنهم افادوا أساطير الوثنيات الموضوعة ، كأنها هي الوحي
 الالهي ، وإلا فما شأن « اوريجانوس » الذي اعلن الحرافة الوثنية
 الرومانية في قوله « إن المرأة شيطان » . إنه لا يمثل الان نفسه ، وهذا
 شأن « هنري الثامن » فقد كان ذا نزوة جباوة محطمة ، يقول
 ما يقوله عن المرأة في غليان نزوته وعرام ظمئها ، ويقتل ما
 يقتل منهم ، إرواء للهب ذلك الظم الذي لا يروى !! وأي صلة لها
 بالوحي او المسيح ؟ ، ومسيو كلوت ، لم يكن باقل منها تسرعاً
 وانذفاعاً ، حين نسب الى المسلمين ما لم يدر به احد ، فعلى م نقيم
 الدنيا ونقعدها وننقاذف بالشرو والاثام وتمزيق كلمة الاخوة
 الانسانية ، وهدم معالم الوحي وطمس اخواء العلم . من جراء
 أوهام وخيالات واساطير وطفيليات لاهة لها بواقع الوحي .
 والحق ان كنيسة رومية ، لم تختلف بأن المرأة تخلق من

(١) كتاب لحة عامة الى مصر ص ٦٢٢

النفس أو لا تخلو منها ، وانما اختلفت في مدلول لفظة «هوم» (١)
اللاتينية ، التي هي بمعنى النفس او الطيف ، هل تصدق على
المرأة كما تصدق على الرجل ؟ على أنها لو اختلفت فهل يحط
هذا من جلال دين سيدنا المسيح ؟

وهكذا نجد قارئنا ، أن كل البلايا التي أنزلها بالإنسانية ،
الذين ارادوا أن ينهضوا بالمعرفة إلى الواقع والعلم في عصورهم
إنما أنزلوها لأنهم اعتمدوا على مثل تلك الحرافات الجوفاء ،
واغتروا بها ، وإنهم يستطيعون أن يقلن مثل ذلك في الاساطير
والطفيليات (٢) التي وضعت حول الكتب المقدسة ، وعلى
السنة الانبياء ، وفيها هدم لمنزلة المرأة الاجتماعية ، واستهتر
بعفافها ، وتهجم عليها ، وعلى حريتها الشخصية .

وصفوة القول ، يجب على قارئنا المثقف أن يعلم أن
وحي السماء هو أبدأ كالسما ، صفاء واشراقاً وسمواً وطهراً (٣)
وهذه الجاهلية التي لم تكن في ظن قارئة واحدة ، أنها
تشمئ من منزلة اجتماعية للمرأة ، نجدها حاوية أسمى المنازل التي

(١) Homo مجلة المشرق مجلد ٣ ص ٩٥٦

(٢) سجدن ذلك موسعاً محوراً في كتابنا « طفيليات واساطير »
(٣) لذلك ضربنا صفحا عن ذكر ما تكدر بين يدينا من تلك
الخرافات كبعض كتابي «مرآة النساء» و «دولة النساء» عملاً بما
جاء في الانجيل «تمسكوا بالحسن» وما جاء في القرآن «وبشر عبادي
الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه»

استمعت بها في سواها .
 أجل ، ما كان يقطع العربي أمراً في بعض قبائله ، الا اذا
 أخذ رأي بناته في الشؤون الخاصة والعامة ، (١) وكمن من
 مصائب وأهويل تنزل على القبيلة التي تجافي نصيح المرأة ،
 وتأبى الاصغاء والطواعية لها .
 ها أنتن ترين قوم « حذام » الذين رفضوا أن يصيخوا
 لنصيحها ، وكيف كان عاقبة رفضهم الشباب ، حتى اصبحوا مثلاً
 خالداً على اللسنة في رفض النصيح وسوء المنقلب .
 إذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت . حذام

عصور ما بعد الهجرة

والآن يحسن بقرائتنا أن ينتقلن الى عصور ما بعد الهجرة
 وقد طوفن ما طوفن في اعماق الاجيال والحب ، ها هن اولاء
 يشاهدن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، في عام الخديبية
 يأمر اصحابه بالتحلل من الاحرام بحلق رؤوسهم ، حين جدته
 قريبش عن مباشرة نسك الحج ، بيد أن الامر يشق على
 اصحابه ، ويشدد الحال ، وتكفر الدنيا في اوجهم ، ولم يجدوا
 من أنفسهم ، حماسة متقدة تخضعهم لتلبية أوامر رسول الله
 ليقضوا ما اعتزموا عليه من اداء نسك منوا أنفسهم طويلاً
 بالاستمتاع به ، وهم الظالمون إلى نهلة حاملة من ماء زمزم ، وتفحة
 قدسية من ظلال البيت الحرام ، فيدخل رسول الله ، على ام سلمة

(١) محاضرات الحضري ١ - ١٩ والاغاني ٩ - ١٤٩

مستطلعاً رأيها مستشيراً ، وفي المسلمين أمثال أبي بكر وعمر
وعلي والمقداد ، وكبار الصحابة ، وما يدخل إلا أمامهم عمداً ، وما
يختصها بالإشارة إلا قصداً ، يفعل ذلك لإظهار سمو منزلة المرأة
الاجتماعية ، وإعلان أن رأيها يعنهم به لدى الشدائد ، وأنها شعبة
من الحكمة يستضاء بها فيما يحزب الجماهير من ظلمة الأمر ...
رأت أم سلمة الاديبة الصابرة ، أن الأمر العملي اوثق
في النفس ، واحفز للاسوة ، وأنفذ في التأثير ، وفهمت أن
الصحاب ، ما بهم من خلاف على رسول الله ، ولكنهم طفنوا
في أكبر أمانيتهم القدسية ، فغز عليهم أن يتحللوا من إحرامهم
قبل إداء النسك ، وفي مقدورهم ذلك فقالت : « يا رسول
الله إبدأ بنفسك » (١)

أخذ رسول الله برأيها ، وما كان ليعزب عنه مثل هذا
الرأي ، ولكنه أرسل معلماً ، فهو يضع الخطط العملية لمعاملة
المرأة حين يختصها باستطلاع رأيها ، وبين يديه جمهرة مفكري
اصحابه ، كأنما يقول لهم بعمله : « إن للمرأة فكراً سامياً ،
وإن للمرأة رأياً خطيراً ، وإن للمرأة عقلية حرة ، لا ينبغي
أن تهمل فيما يحزبكم من أمر ، وكأنما يضع لهم المثل الاعلى
لمنزلة المرأة الاجتماعية بعمله هذا .

وهل سمعتم أن رئيساً كبيراً ، أو زعيماً أو حاكماً
يجرح في جاهه من قبل اصغر امرأة في الأمة ، ويوضي ويبالغ
في الرضا محتفياً بحترماً حريتها الشخصية واتجاهها النفسي .

(١) اعلام النساء ٢ - ١٦٠١

تلك هي « بريرة » ولعل قارئنا يخلن بريرة هذه ابنة زهير كبير أو ملك خطير ، أو ذات شوكة وسلطان أو ثراء جم ، لا لا ، هي امرأة فقيرة كانت أمة - في عرف الجاهلية - وزوجة لمولى ، ولكنها في نظر لانسان الكامل ، لا تنقل منزلتها في كرامتها عن منزلة أبة ملكة أو ثرية أو سليبة أسرة عريقة ، لا شيء إلا لأن لها من الحقوق ، والواجبات والحريات الشخصية ما لكل امرأة .

ها هي ذي تقبل على رسول الله وتعلنه بكل صراحة أنها لا تريد العودة إلى زوجها مغيب ، ويأتي خلفها مغيب المسكين ، باكباً منتحباً ضارعاً إلى رسول الله أن يسك عليه زوجه في حبيبة إلى نفسه ، وعزيز عليه فراقها ويتأثر النبي ﷺ بتضرعاته ويرى أثر الحب الصادق البريء منطبعاً على وجهه ، فيشق عليه ذلك ويشفع بنفسه إلى بريرة طالبا إليها أن تراجع فيستجيبه قائلة : « أهذا أمر من الله أم شفاعة منك ؟ » فيقول ﷺ : « انما أنا شافع » فتأبى !!

وحين شاهد « مغيب » هذا الرفض الصارم اخذ يبكي بكاء الاطفال ، ويتبعها في طرقات المدينة ضارعاً متوسلاً ، وهي لا ترداد إلا إصراراً وعناداً . ولولا أن رسول الله يأخذه الشفاق عليه ، فيضرع إلى الله أن يزيل من قلبه حباها لقضي عليه . (١)

(١) راجع باب الشفاعة في البخاري ٧-٤٨ الطبعة الحميدية

ها أثنى وأثنى رسول الله ، كيف حافظ على منزلة المرأة الاجتماعية ، وكيف كرم حريتها الشخصية ، وكيف أبى أن يمس مواطنها رفقاً بها ، وبفسرها على ما لا تحب ، قسراً يلقي في روعها أنها صغيرة المنزلة ، ليس لها عزة تمنعها أو ثروة تحول دون امتنانها .

وهذه « عائشة ابنة طلحة التيمي » المثقفة الادبية ، والعالمة الفلكية ، كم من جلال وإكبار ، كانت تستمتع بها منزلتها الاجتماعية ، تنحصر دون سواها الأبصار ، وتظل الاصابع مومنة اليها .

ولكي تدرك قارئتنا شأو هذه الكلمات التي نحاول أن نفصح بها عن مكانة عائشة ابنة طلحة ، والتي تبدو لأول وهلة طافحة بالمبالغات ، نزيح الستار عن مواكب دمشق ، واحتفاء الملك والاهلين بها لدى مقدمها من الحجاز ، وكيف تقام الحفلات والاحتفالات ، وكيف يجتمع اليها ساسة الدولة وكبار قوادها وعلمائها ، لكي ينالهم شرف الاجتماع بها ، والافادة من مواهبها السياسية العالمية العالية .

لاريب أن قارئتنا فهمن أبة منزلة عظيمة ، كانت لعائشة

— على أن البخاري ذكرها في ما يقرب من خمسين موضعاً وسيأتي بحث الطلاق في المراتب عامة ، السماوية والوضعية والقوانين ، وتاريخه وأدواره وأقوال المشرعين في كتابينا « المرأة والتشريع »

ابنة طلحة حتى أن صاحب كتاب نهضة المرأة المصرية (١) ، ذكر أن الاستعراضات العسكرية وِمران الرماة وتمييز المتفوقين منهم بالتشجيع وإهدائهم ثمن التحف ، ما كان يتم على أوفى نصيب ، من الدقة والملاحظة والأمانة وفهم القيم ، إلا بمحضر ابنة طلحة ، إذ كانت - كما قال - خير حكم .

والسكن ابتها القارئات السيدة « نفيسة » التي ما كان منزلها يخلو من الزائرين والزائرات ليلاً ونهاراً ، منزل لو أرسلت على أركانه الاردان والسجف ، لكان كالبيت جلالاً وطهراً .. أعمال اجتماعية بخالدة ، ومساعٍ في سبيل الحق والخير ، وإياد أثر أياد في اصلاح حال الطبقة الفقيرة ، وجلال من العلم لا يدرك مدى شأوه إلا عباقرة العلماء ، ومجتهدوا الائمة هذا تلميذها « محمد بن ادريس الشافعي » الامام المجتهد ، كان كل رجائه من الدنيا أن تصلي عليه السيدة نفيسة قبل أن يشوي في جدته .

اما منزلتها الاجتماعية ، ومكانتها الدينية ، فحسب فارتائنا أن يعلمن أنها يوم توفيت ، حاول زوجها « إسحق ابن الامام جعفر الصادق » وكبار الهاشميين ، أن ينقلوا جثمانها إلى المدينة المنورة ، فهاج هياج الشعب المصري ، وأبى ذلك . أجل أبى ، باصرار وعزمات ، لتظل في مصر ذكرى للعلم والتضحية والنبيل والانسانية .

(١) هذا جانب من مكانتها وستأتي في الكتب الآتية جوانب أسطع والمع ، راجع دولة النساء ٢٦-٢٨

وإن قارئنا يجد لهذه السيدة الكبيرة، في مصر إلى اليوم من ذكريات وأتجاه خالداً، ما يتحدث عنها الرواد رغم تطاول الحقب (١). وما شهدت مصر منذ عهد « نيتو كريس » (٢) امرأة لها من قداسة المنزلة الاجتماعية وسمو احتراماتها، وجلال آلتها، ما شهدت لفنسية بعد ابنة عمها، السيدة زينب الصغرى وما كانت « قطر الندى » في العصر العباسي، بأقل مكانة ومنزلة من عائشة ابنة طلحة في العصر الأموي وبذلك لنا أن نزيح عن أوجه قارئنا ظلمات الحقب ليشاهدن قطر الندى التي كانت المرجع الرسمي الأعلى في الدولة، لحل القضايا المعقدة، وقصلها على خير الأوجه الشرعية وأصحابها، وكم فيها من توجيه وتصحيح ودقة وأمانة، وبراعة وفهم وذكاء، حتى أن المجاهد الكبير، والعلامة العبقري الأمير على الهندي صاحب « كتاب مركز المرأة في الإسلام » (٣) ذكر أن مكانتها في العصر العباسي، مكانة رأسه الاستئناف في العصر الحديث.

(١) السيدة نفيسة مكانة علمية خطيرة سيأتي ذكرها في كتاب

« المرأة والعلم » راجع ترجمتها مفصلة في شذرات الذهب ٢٠=٢

(٢) سيأتي ذكرها

(٣) ص ٢٥

المرأة والمصلحة الاجتماعية

كبير في الخطأ أن نجد قارئتنا أمة تؤثر التضحيات ،
في سبيل المصلحة الاجتماعية العامة ، والمغامرات من أجلها ،
من غير أن تنمي نوياتها منذ الطفولة ، في أعماق مجموعة كل فرد
النفسية . أي من غير أن تنشأ أطفالها على العقلية الاجتماعية ،
وأنى نجدنها عاملة حية وارفة الظلال ، جمة الثمرات ، إذا لم
تنشئهم ، على أحدث طرق تربية العقلية الاجتماعية باهتمام
وسهر دائبين .

وفاقد العقلية الاجتماعية ، محال أن يؤثر المصلحة الاجتماعية
العامة ، على مصلحته الذاتية الخاصة ، وما تشاهده قارئتنا
أحياناً ، من اندفاع بعض الافراد الذين يفقدون العقلية
الاجتماعية ، إلى إثارة المصلحة الاجتماعية العامة ، والتهويل
حولها ، فهو في الظاهر فحسب ، إذ يجدن لذلك الاندفاع
بواعثه الذاتية « الحفية » ، التي هي المحرك الاول لو درسن
المسألة دراسة نفسية عميقة . والبواعث الآتية الحفية لانحصى
كثرة ، يجدها في طلب الرياسة حيناً ، وفي دجى التجسس
أحياناً ، وتارة في طلب الأثراء ، وطوراً في إذاعة فتنة أو
إفساد عقيدة ، وبذلك يعمل بولس ذهابه إلى القدس مع برنابا
لكشف خفايا الأخوة الكذبة ، ولكن بسبب الاخوة

الكذبة الذين دخلوا اختلاصاً ليتجسسوا حربتنا ، (١) وفي مثل هؤلاء نزلت آيات كثيرة « إذا جاءك المنافقون ، قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة . . . » (٢) « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن » (٣) « وقالت طائفة من أهل الكتاب ، آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ، واكفروا آخره لعلهم يرجعون » (٤)

ومن هنا قارئنا يدرك ، أن المظاهر الخداعة والخطب الرنانة ، فلما تدل على الحقيقة النفسية ، وكمن البواعث الحفية على أن الاهتمام إليها ، يقتضى جهداً في التبع والاستقصاء ، وأزماناً طويلة تنفق هنا وهناك .

هؤلاء « الدومة » (٥) حين يشعروا من السلطان العثماني « عبد الحميد » أن يسمح لهم بسكنى فلسطين ، تظاهروا

(١) غل ٢=٤

(٢) المنافقون ١

(٣) البقرة ١٤

(٤) آل عمران ٧٢

(٥) أي المهتدين للإسلام من يهود سلانيك رجالاً ونساء . راجع

المقتطف مجلد ٣٥ ص ٩٥٧

بالاسلام وتحسوا له حماستهم المشهورة !! واخذوا يقيسون
 الدنيا ويقعدونها ، دعاية له وذودا عنه ، وهم في أطواء ذلك
 يكرهون بالسلطان ، ويحفرّون حوله الاخاديد ، ويؤلفون المذاهب
 والعصابات والاحزاب ، حتى إذا هوى السلطان ، وظن
 الاتحاديون ، ولم يجد الدونة إصغاء لآمانتهم ، ولا تلبية لاهدا فيهم ،
 البعيدة المرصودة ، أعلنوا حقيقةهم وخلعوا ثوب الاسلام ،
 ولجئوا إلى أوربة وربطوا أمرهم هناك .
 والحلاصة أن الانسان في صميم فطرته الاولى ، مشتمل
 على نويات العقلية الاجتماعية ، ونويات العقلية الذاتية ، ولن
 يكون توجيهه إلى هذه أو تلك ، الا بعوامل التربية .
 نعم لن يكون هذا التوجيه منذ الطفولة ، الا في المدرسة
 الاولى ، وعلى يد الأستاذ الاول « الام » أي على يد المرأة
 إذن فالمصلحة الاجتماعية وليدة العقلية الاجتماعية ، فمن لا
 يملك هذه العقلية ، من أنشأ أو ذكر فهيئات هيئات أنف
 توقظه العبر ، وأن تذكري في نفسه حوادث الدهر ، حماسة
 الاهتمام بالجماعة ، وثورة التضحية ، ونور الاخلاص ، أي هيئات
 أن يعمل للمصلحة الاجتماعية ، ولو كان في ذلك هلاكه ،
 وحوادث الامم البائدة أكبر شاهد !!
 وكلّ يعنيننا في هذا الفصل أن نذكر اهتمام المرأة
 بالمصلحة الاجتماعية العملية على مدى التاريخ ، سواء كان في
 المحيط الانساني العام ، أو في المحيط القومي ، أو المحيط الديني ،
 والمصلحة الاجتماعية ، وإن كانت وليدة العقلية الاجتماعية

ونتيجة لتربيتهما ، وطرق تهذيبها ، بيئة ومدرسة ومنزلاً ، فهي عاطفة بلا ريب ، وهي بحق اسمى العواطف الانسانية وأقدسها على الإطلاق واحقها بالحدود والاكبار ، لان الفرد لا يكون إنساناً اجتماعياً مهنياً كاملاً ، وعضواً حياً اجتماعياً نافعاً ، إلا بها ولأن الجماعة لاتفعلوا ولا تمجد ولا تخلد ولا تتحضر ، وبالاختصار لانكون الانسانية ذات الجسد تاريخية وثقافة ومدنية إلا بها .

وإذا كان علماء الاجتماع والقانون ، يخشون على الكيان الاجتماعي . من أوباء الانانية الفردية المجرمة ، ويوجبون إعدام الفرد الملوث بها ، خشية خطر العدوى ، فإن واجب المرأة كمرربة وأم ، قبل المدرسة ، أن تغرس نويات العقلية الاجتماعية بكل صهر واهتمام وجهد ، وإلا كانت المسئولة الاولى عن إعدامه .

ولعل جميع قارئتنا يذكرن الحادثة المشهورة ، حين قدم أحد اللصوص الفناك للإعدام ، وطلب اليه أن يثمن كالعادة ، فلم يطلب إلا وداع أمه ، وأن يقبل لسانها ، لانه تظاهر بالبكاء والحنان لها ، وما كاد يتناوله بين فكيه ، حتى انتزع من أقصى لهاثها ، وتركها جثة هامدة ، وقدما يتدفق أيامه ، وهو ينشد لدى موته .
لو لم يكن هذا اللص مشجعاً
لي في الجرائم ما فقدت حبيساتي
ولولا عاطفة المصلحة الاجتماعية وتفاوتها في الافراد قوة

وضعفاً ووجوداً وعدمًا ، لما تفاوتت الأمم أبحاداً ،
واختلفت قوةً وحياءً وحضارةً ، إذ محال أن تساوي الأمة
الجاهلة التي لاتفهم شيئاً عن قيم المصلحة العامة ، الأمة المثقفة
التي تضعي بكل شيء في سبيل ذلك ، إذ الاثره الذاتية
الاثيمة هي الافعى التي تسمم بواعث المصلحة الاجتماعية ،
وتأتي عليها في أبعد جذورها ، كما أن الايثار الكريم هو
القوة التي بها تحيا وعليها تقوم ، وإيثار المرأة في سبيل
المصلحة الاجتماعية العامة ، لم يحل منه جيل من الاجيال منذ
فجر التاريخ

ونحن في هذا البحث ، لاثحاول أن نزجي إلى قارئائنا ،
فلسفة المصلحة الاجتماعية العامة ، ونستقي اقول المصلحين
والعلماء ورجال القانون حولها ، وإثنا كل عنايتنا أن نشهدث
عن أثر حياة المرأة في المصلحة الاجتماعية العامة ، سواء
بتربيتها وتأثيرها أو بعملها منذ أقدم الأزمان إلى اليوم ،
على أن الافاضة في الناحية التربوية خاصة ، سنزجها إلى
موطنها في الكتاب الرابع .

نعم دائرة المصلحة الاجتماعية ، حمة السهوب مستوامية
الآفاق البعيدة ، لأننا نتناول كل ما يقدمه الانسان لآخيه
الانسان ، من خير وهدي وثقافة ومساعدة ، بحماسة الوجدان ،
وطهر العاطفة ، وبقطة الضمير ، وروح الحق ، ونور الايمان ،
ولا يسعنا أن نستوعب في بحثنا هذا كل ما توفر لديشا ،
من دراسات تاريخية حول المرأة .

وإنما سنقتصر على الخلاصة ، من هذا اللون لتكون عونا
لقارئائنا على البحث والتنقيب والدراسة ، نقتصرها ببسطة
حسب التسلسل التاريخي .

عصور ما قبل الهجرة

هذه مدينة « بيت فلوى » الكبرى يحاصرها « ألفانا » القائد
الآشوري الحربي ، الذي أفضى إليها بجيشه الجرار البالغ
مائة وعشرين الفا ، بعد أن أخضع في طريقه كل الشعوب
التي مر بها ، يحاصرها حصارا شديدا ، ويضرب عليها سورا من
الحديد والنار ، ويقطع عنها المياه ، حتى أوشك أهلها أن
يلكوا ، وفي إحدى الليالي فكرت المرأة اللامهة الذكية ،
« يوديت » تفكيراً عملياً سريعاً حاسماً ، فلم تجد طريقاً
حيال نطاق الجنود الجهنمي ، الذي يحيط بعشيرتها ، إلا أن
تكون المغامرة الفدائية ، الحذرة الماكرة الداهية ، إما انتصاراً
وحياة ، وإما موتاً بشرف وجهاد .

هاهن قارئائنا يشاهدنها ، وقد خلعت عنها مسوح العبادة
وأردت أفقن ثيابها ، وألقت بنفسها في بحر من ظلمات الليل ،
يبتلعها وهد ، وينشلها نجد ، حتى إشرفت على الحرس فبادروا
إليها ، وقد زعمت انها هاربة ، لان قومها هلكوا أو كادوا ،
فيساقوها إلى فسطاط القائد .

ها هن يشاهدنها بين يدي « ألفانا » تغرب به وتشرق
من هنا وهنا ، حتى اعتقد أنها صادقة ، وآمن لها ، وما

كاد يأخذ عينه الغمض ، حتى وثبت اليه وثبة ! للباءة الكاسرة
واحترت رأسه بجنجرها مريعاً سريعاً ، ثم تناولت الرأس
وتسللت به في غلس ، وما كاد قومها يرون الرأس ، حتى
امتدت عزائمهم ، وثار في انفسهم ثائرة الحماسة والشجاعة
والاقدام ، ورأوا من العار أن يكونوا دون « يهوديت »
بطولة وإقداما وثباتا ونضحية ، وما كاد الفجر يرسل
أضياءه الخافتة بين هاتيك الظلمات ، حتى هجموا على الجيش
الاشوري هجمة واحدة ، بما أذهلهم بغته وطار بشجاعتهم ، وما
كادوا يرون القائد ذبيحاً ، حتى وهنت عزائمهم واسترخت
إرادتهم ، فقتل منهم من قتل ، وفر من فر ، وهكذا ما كاد
ينتصف النهار ، حتى رأينا يهوديت ، وقد دفعت لها كتوز
القائد وذخائره ، فلم تكتنر بها ، بل لبست مسوحها ،
وثابت إلى معبدها ، وقد أرضت رهبها وشعبها والتاريخ ،
فكانت في التاريخ العام علم فخار ، وذكرها لاتزال في
الكتب المقدسة تتلى إلى اليوم بخشوع واحترام . (١)

ولعل قارئنا لا يجهل أن اليمن ، تأخرت سياسياً
واقتصادياً وعمرانياً ، في القرن الثالث قبل الميلاد ، وإنهم
ليشاهدن أثر الحراب والتداعي ظاهراً هنا وهناك ، في مصانع
الاسلحة والنسيج ، في المسكن العامة ، في القصور والشكنات
في الاسوار والمعابد ، في مجاري المياه والسدود ، حتى أن

(١) سفر يهوديت .

من آداب العظيم ، الذي انفتحت عليه ذول اليمن القديمة
 القناطير المنظرة ، والذي عليه مدار الحياة الزراعية والثروة
 والغنى ورفاهية العيش ، بدأ يتصدع ، ولا ترميم ولا اصلاح ،
 وهكذا حين تنحط العقلية الاجتماعية ، وتفقد الافراد حيوية
 للمصلحة العامة ، تموت العوائم ، وتخذ رغبات الاصلاح وتزداد
 السخافات ، وتكثر الترهات والباطيل ، ويصعب الوقت ، الذي
 هو كنز الاتحاد والثراء والقوة شيئاً تافهاً لا وزن له ، ينفق
 في القابل والقبيل والعبث واللهو ! ! فسكن من سخافة مدونة
 يحجل منها التواضع فجدوها في تلك الحقب السوداء المشؤومة .
 هؤلاء هم يرون شقوق سد مأرب وكثرة الحشرات التي
 اقاروا اليه ، فيكون جل اهتمامهم واصلاحهم ، أن يأتوا
 ليقطع من المأثرة ، زارعين ، أنها تقضي على الحشرات والجربان ؟
 وحين توقفت « طريقة » اليمانية ، المرأة الاجتماعية المفكرة ،
 تنذرهم البلاء الذي سيحقيق بهم ويؤخر قهرهم في البلاد أيدي سبا ،
 ويجعلهم عبثاً للمعتبرين ، سخروا منها واتهموها بالتطير
 والكهانة ، وحين لم تجد مصيخاً أو متعظاً أو واعياً رحيماً ،
 أعرضت عنهم وأزمت الرجيل فاقبتي أثرها ذوو الفكر
 الاحياء ، وأهل البصيرة بعواقب الامور .
 أجل ، أزمت الرجيل وهي تقول كلمتها المشهورة الخالدة
 « ليس لكم يا أهل مأرب من بقاء الا بضعة أعوام ! ! »
 وهكذا كان .
 ولعل قارئنا لن يتخلينا حين نصف عظمة اليمن الزراعية

الحالدة ، البلاد التي كانت توصف بالسعادة والمدنية والعمران
أننا نبالغ ونسرف في المبالغة ، ولكن إذا علمن أن سدود
اليمن وصلت مياهها حتي تدفقت في البحر الاحمر علماً ما دينا ثابتا
مشاهدا حتي اليوم ، لم تستطع كثر الدهور والاجيال ان
تقضي على كل معالمة ، تبين اليهن فعائبنا على إيجازنا في وصف
الحقيقة والاقتصاد من الشرح (١)

وهاهنا قارئتنا يرين الشعب الفارسي النبيل ، شعب المجد
والمدينة العريق ، يشور نساء ورجالاً على الملك الظالم المستبد
والطاغية الجبار « شهربار » (٢) ويهدم عليه قصره ، ويقتله شر
قنلة ، ولكنه يقف وقفة الاجلال والاكبار ، وقفة الشعب
المؤمن بقيم المصلحة الاجتماعية ، وجليل منافعها وكبير آثارها
يقف أمام المصلحة النبيلة ، ذات التضحيات الكريمة ، في سبيل
المصلحة الاجتماعية ، « توران » ابنة كسرى ، ويجلسها على
العرش مستسلماً راضياً فرحاً مغتبطاً ، وهكذا يكون التقدير
والاعجاب والتأييد للعاملات ، المضحيات في سبيل المصلحة
الاجتماعية العامة . (٣)

(١) قد اكتشف الانجليز بقايا تلك السدود ومجاريها التي تروي
عدن وتنصب في البحر الاحمر مياهها الزائدة عام ١٨٥٦ ، وقد
اصحوا بعضها بما يتسع لثمانين مليون جالون ، راجع ملوك العرب
للريحا في ١-٣٤٤ وقصص العرب ١-٧٠

(٢) كان ذلك عام ٥٩ هـ ، راجع تاريخ الخميس ٦-١

(٣) قد عهدنا لقارئتنا في السفر السالف ص ٣٠ أن الابهم لاحتترم =

لا ريب أن قارئنا يزدهن كل الازمراء، بعظمة المرأة
وكبير مسكناتها على أعراف التاريخ، بل هن يجدن أن
المرأة لا تفوتها نهضة من النهضات، أو حركة من الحركات
الاصلاحية الاجتماعية، إلا وتباركها بحماسة وحماسها
وتضحياتها.

ها هن أولاء يشاهدن السيدة « خديجة » ابنة خويلد،
تضع اللبنة الاولى في مؤسسة الثقافة الانسانية العليا
- الاسلام - تضعها بعزمات جبارة، مؤمنة بذلك النبور
المتدفق من السماء، الذي انفجر في غار حراء، وقد رأت
من مصلحة الانسانية العامة أن يكون الاصلاح الانساني العام
وأن يكون التفاهم بين الامم، وأن يحل النظام والحب
والصدق محل الحصورات والحروب والفتن والاحقاد، فطمأنت
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بأن الذي أتاه هو
وحي السماء، هو الحق، مستشدة بأن من كان يحمل قلبها
طهوراً، ونفساً اجتماعية، وإخلاصاً للانسانية وجهاداً وتضحية لها
محال أن يكون مستراداً لاساطير الجن، وفتن الابالسة (١)
وها هن أولاء يشاهدن « أسماء » ذات النطقين، تضع

— إلا العاملات والعاملين، وليس للخنائن إلا الاعدام ولو كان ملكاً —

فكما رأينا الشعب الفارسي يعدم « شهر بار » ويقوم مكانه « توران »

وأينا الشعب الرومي يعدم « قسطنطين » ويقوم مكانه أمه « زوا »

(١) كتاب « أمرار النساء » ص ١٦

(٢) كتاب « أمرار النساء » ص ١٦

اللبنة الثانية في ليلة الهجرة ، تضعها وقد حفت بها الاخطار ،
وأحدثت بها الخطوب ، وملت بها المسؤوليات ، تضعها غير
حافلة بقريش ، ولا بسخطها وعرامها ، ولا بأحقادها وخصوماتها ،
ولا بجمهرتها وأسلحتها ، إنما تتعهد أن توصل الزاد الى غار
ثور ، لرسول الله ورفيقه ، في سواد الليل وحلكة الدجى ،
توصله جريئة مخاطرة ، توصله بنفس مطمئنة مؤمنة ، إنما تقوم
بما تقوم به في سبيل المصلحة الاجتماعية العامة وفي سبيل
النهضة ، وفي سبيل الخير والحق . (١)

ولا ريب أن جمهرة قارئتنا المثقفات ، يعلمن أن سيدنا
الحسن بن علي كرم الله وجهه ، تنازل عن حقه في الخلافة
بعد البيعة ، مؤثراً مصالحة الامة الاجتماعية ، على مصلحته
الذاتية - ان كان في خدمة الامة من مصلحة سوى
المسؤوليات والجهود والتكاليف - غاضاً بصره متساحاً عن
كل ما يثير النزاع ، حتى أنه صرح لمعاوية بذلك « تركت
قتالك اصلاح الامة وألفتها » كما أكد ذلك للمعتضين عليه
من قواد ابيه وجنوده الذين أبو إلا مواصلة الحرب إلى
النهاية قائلاً « أردت صلاح الامة وكف بعضهم عن بعض » (٢)
ولكن قليلات جداً اللاتي يعلمن أن أم المؤمنين السيدة
« أم سلمة » البررة الجريئة ، ثارت ثائرتها لأنها تخوفت من

(١) للتوسع في ترجمة اسماء واجع « حياة الزوجين » ٢٥

(٢) ابن الاثير ٣-٢٠٥ وابن أبي الحديد ٤-٦٦

عاقبة استطالة رجال معاوية علي أمير المؤمنين سيدنا علي عليه السلام ، ورأت في ذلك تحدياً يوغر الصدور وينفث الاحقاد ، ويشعل الضغائن وبالتالي يصدع صفوف الامة ويهدمها هدماً ، فأرسلت إلى معاوية رسالتها الجريئة التي نوه بسمو قيمتها الاجتماعية المؤرخون . (١)

وهذه أم المؤمنين السيدة « عائشة » بيعت سيدنا عمر رضي الله عنه ، أموالاً طائلة فتوثر بها ابناء الطبقة الفقيرة من الامة وتنفعهم بها ، حتى أن خادمتها التي كانت تطوف بالبدن على البيوت ، قالت لها مبهوتة ، حيفة رأت يدها حفرأ « أراك يا سيدتي لم تبقى شيئاً وانت صائمة » فأجابتها « لو ذكرتني لفعلت » (٢) فهل من سمو يكون عاطفة المصلحة الاجتماعية فوق هذا السمو ؟

ألا إنها نسيت أنها صائمة ، وأنها بحاجة إلى شيء من الطعام لتبذره ، وأن كل ما تملكه هو هذا المال ، الذي نفخته بارة محتسبة هنا وهناك ، وإلا لانتجده غرابة أن تنسى السيدة عائشة صيامها ، بل ان تنسى نفسها في موقف العاطفة المشبوبة وحماسها ، فالعواطف أبدأ لها خصائصها وميزانها ولها مملكتها الذي هو فوق الحساب والتقدير . ولا ريب أن صرخات المرأة ، في سبيل المصلحة الاجتماعية

(١) اعلام النساء ٢-١٦٠١

(٢) شهور النساء ٥١

الانسانية العامة ، لاتزال تدوي في أقصى الممالك وأدناها ،
 منذ أقدم الاجيال إلى اليوم ، وإن فارتأتسا المدمنات على
 المطالعة والدرس لاغرو أنه قد أثار إعجابهم وحاستهن ذلك
 الصوت المجلجل الداوي صوت «سودة» الممدانية ابنة عمارة
 وهو على أشد ما يكون وضوحاً وقوة ونبيلاً وصفاً ، في
 الحجاز والعراق والشام ، ها هن أولاء يشاهدنها تدخل العراق
 في ركبها ، وتأخذ سميتها إلى عاصمة الدولة «الكوفة» . . .
 ولاغرو أنه يشاهدن أمير المؤمنين «علياً» لايسكن براها
 داخلة عليه ، وهو يصلي ، حتى يتم صلاته وينفقل إليها ، الكباراً
 لشأنها واحترافها ، لانه يعرف سهرها على رعاية المصالح
 العامة ، وكبير غيبتها وصدق انتقادها وحصافة آرائها قائلاً :
 - ما بالك ياسودة ، أوراك شيء ؟

- أجل ، هذا أمير الصدقات ، يجور ويظفئ ويستبد
 - اللهم إني ما أمرتهم إلا بما شرعت لهم في وحيك
 - النصره النصره يا أمير المؤمنين ، فان الحق إن أهل

ضاع وضع . . .
 وما هي إلا أيام قلائل ، حتى أصدر أمير المؤمنين ظهيراً
 بعزله ، بعد أن تبين له سوء إدارته واضطراب أمره .
 وها هي ذي «سودة» نفسها ، تدخل دمشق تأثره حانقة
 محتجة على معاوية ، في تركه الحبل على غاربه لابن «أوطاة»
 الذي يجور ويظفئ باسم الدولة قائلة : « يا معاوية إن الله

سألتك عما افترضني عليك من شريعة ، فوالله ما لجسافا إليك
مسالمين ، إلا لأنا آثرنا الذي هو خير « لصالح الجماعة » وإلا
فلدينا المنعة والشوكة والعزة ، فاما عزله ، وإلا
فعرفناك !! (١) فيتهلل وجه معاوية ، ويأخذ في ابتساماته
الخلابة ، ملقيا جباله لاسترضائها بانارة رغباتها الخاصة ،
ولكنها تتجهم في وجهه وتكفر ، وتنكر عليه أن تكون
لها رغبات خاصة ، تأتي من أجلها وتحتج وتدفعها إلى الثورة
والنضال ، وكرهت منه ذلك كراهة شديدة ، وأدركت
أنه يكرهها ، ويحاول أن يصرفها عما جاءت لأجله ، فأعلنت
في عاصفة ملتهبة من الغضب والمغامرة ، أنها ما وفدت عليه
ولها أية مصلحة خاصة ، وأن لديها ثروة كافية ؟ مغزؤها
وكسرة خبز وجرة ماء !!

أجل ، أعلنتها في عاصفة ملتهبة من الغضب ، أن الامة التي
تفقد غيرتها وثورتها وتضحياتها في سبيل المصالح العامة تموت ،
على أنها في النهاية انذرت أن وراءها شعبا حيا اتسمها على
رفع احتجاجاته اليه ، فان غض طرفه عنها وهملها ، فانه
لايفض ولا يهمل ، وهناك الفتن والحروب وتزريق الكلمة .
فما وسع معاوية إلا أن يعلنها أنه عامل على عزل ابن أوطاة
تقديراً من سوء العاقبة . فمعهما والخفا إلى تلك العاقبة (١)
وهكذا كان الانتصار شأن هذه الزعيمة الاجتماعية المغامرة
المصلحة ، في كل مواقفها الشريفة الخالدة ، ألا أنها في تاج

(١) قصص العرب ١-١٠٠

التاريخ العربي ، أثنى لؤلؤة وضاعة من الذكريات الخالدات ،
ألا إنها خير أسوة لآخواتها بنسات الانسانية في كل عصر
ومصر . . .

وهذا أبو علي القالي ، يذكر في أماليه ، أنه يوم مات
المصلح الاجتماعي والانسان المهذب « الاخنف بن قيس » لم
تدع النساء ذلك اليوم يمر غفلا في التاريخ ، بل اقبلت
إحدى ادبيات العراق لتوفيه حقه من تقدير المرأة له ، بمجدة
فيه تضحياته في سبيل المصالح العامة التي حبس نفسه
عليها طول حياته :

« لقد عشت يا أبا بحر حميدا ، ومت سعيدا وكنت من
الرجال شريفا ، وعلى الأرامل عطوفا وفي قولك سيدا ، وعلى
الخلفاء موفدا » (١)

وها هي الثائرة الفرنسية الجريئة البطلة « شارلوت
كوردي » التي اشتكت في الثورة العامة التحريرية اشتراك
جبارا واعيا مشفقاً ، اشتراكا جعلها ذكرى هدى وحرية
ونبل لكل لسان

ألا إنها كانت تفهم من معاني المصلحة الاجتماعية العامة ،
ومقاصدها الانسانية الكريمة ، ومثلها التحريرية العليا ، ما لا
يفهمه الكثير من زعماء الثورة أنفسهم .

(١) اي توفده الجماعات حل القضايا المعقدة بين الامة والدولة ،
لاصلاح وترفيه العيش راجع الامالي ٣-٢٧

لله هي من اجتماعية نبيلة و «إنسانية إنسانية» تضع موازين
المصلحة الاجتماعية الانسانية بالقسط ، تضعها بحسب و فهم
وتقدير ، تضعها فوق كل عاطفة وحقد ، تضعها بلباء وشجاعة
ومغامرة ونزاهة وإخلاص .

أجل ، تضعها وهي لاتبالي بعد ذلك ما يكون ، من
حياة أو موت ، من غنى أو فقر ، من انطلاق أو سجن ،
ها هي ذي تأتي كل الالباء أن تشج بوجهها عن السفاح «مارات»
الثائر الالهوج الحقود ، حين أخذ يفتك بالضعفاء فتسكا ذريعاً
ويأخذ المصلحين بذنب المفسدين ، والامناء الخلفين بذنب
الخائنين المنافقين والكرام الابرياء . بحريوة اللثام الانتهازيين
لله هي كيف لا تأتي ؟ ! اوفي نفسها الجسارة وقد
لايخمد لهيبه المقدس حتى يأتي على كل عود نخر ، وفي قلبه
المؤمن الكبير قوة لانهاب الموت ، ولا ترهب الردى .

شارلوت شارلوت ، هي التي ماعرفت الاحجام أو الخوف
ماعة في حياتها

ها هي ذي تستل خنجرها الماضي ذا الحدين ، وتهجم به
على السفاح الجبار «مارات» الخفيف ، وتطعنه طعنة عميقة
نجدلاه ولا تنزعسه حتى تلقي بقذره قطعة من الفولاذ على
الارض ، وتسحقه بقدمها قائلة : «الآن افنديت فرنسا من
سفك دمه» (١) .

(١) كتاب . الواجب ، لجول سيمون ٢-١٢١

لله ما أحلها إنها أثبت أن تتخذ الثورة التي ما أعلت
إلا للقضاء على الظلم والظالمين ، وغذاب « الباسمئيل » ومثل
العيون ، وقطع الأطراف ، وسيلة لاستعادة الشر في ثوب
الحير ، والظلم باسم العدل ، والموت باسم الحياة .
وتضحيات المرأة في سبيل المصالح الاجتماعية ، لها منافعها
الجليلة في حياة الأمة ، وآثارها الحاسدة في تربية العقلية
الاجتماعية في نفوس أطفالها .

وقد شهدت فرنسا من تضحيات المرأة في سبيل المصلحة
الاجتماعية العامة ، ما يعد بحق هبات من الانسانية العالية
والاحاسيس النبيلة لكل أمة ، وإذا كانت التاريخ يفخر
أكبر اطباء العالم « باستور » وتضحياته بثروته على سعتها
وضخامتها ، في سبيل تحرير فرنسا من الاحتلال الالمانى ،
وتبرعه بما لم يتبرع به أحد قبله ، أي بكل ثروته البالغة
خمس مليارات ، فإن امرأة واحدة من نساء الشعب الفرنسي
استطاعت ان تشاطر طبيبنا الانساني الكبير ، عاطفته
الاجتماعية النبيلة فتبرعت بكل مليونها الذي تملكه من
الفرنكات .

وها نحن أولاء نزجي بين يدي قارئنا ما كانت من
ضلع المصريات المؤمنات بالمصالح الاجتماعية العامة ، قبضيات
ومسلات ، وإنهن ليفخرن بهن جميعاً معجبات ، وكيف لا
يعجبن ، والقبضيات الكريمات يذهبن إلى مسجد درة آل البيت
النبوي المطهر السيدة « زينب » رضوان الله عليها ، ويقفن

خيال ضريحها المقدس معالم ومكبرات لعظمة تاريخها وجليل
آثارها في أنفوس المصريين ، ويتحدثن بأطيب الحديث في
كلمات إنسانية اجتماعية واقية ، وهن لا يقصدن من وراء
ذلك كله ، إلا وحدة مصر والعروبة ، وخير مصر والعروبة ،
وعظمة مصر والعروبة .

وكيف لا يفخرن ، وهؤلاء أخواتهن المسلمات يؤدين واجب
المصلحة الاجتماعية العامة التي هي فوق المصالح كلها ، يؤدينها
في دار البطيركية القبطية ، ليقابلن الانسانية بالانسانية ،
والاجتماع بالاجتماع ، ويفكرن في الذين يعيشون على حساب
تزييق وحدة الكلمة ، أي يفكرن في الاعضاء الملوثة المعدية ،
ويمملن على بتوها قبل أن تمض وتمت ، وقد القين هناك
خطبهن الاجتماعية ، التي اشعت في مجتمعنا العربي اشعاع
التفاهم والتسامح والاجتماع ، بل اشعاع الحياة والنور . (١)
وما أكبر ما تجسد قارئتنا بعد ذلك في تاريخ حياة
الزعيمة الهندية ، والشاعرة المشهورة « ساروجيني يندو » إنهن
يجهلنها تماماً بشخصيتها الفذة ، وشجاعتهما النادرة ، وإيمانها
العجيب ، وتضحياتها الغربية ، أسمى مواقف الجهاد المقدس .
التي وقفها الزعيم الأكبر « غاندي »
لله هي ، من زعيمة نذرت نفسها للمصلحة العامة ، ولم
تدعها تنازعها على أية مصلحة خاصة . تنازعها تنازعها ؟ عجيب

(١) كتاب نهضة المرأة المصرية ص ٣٥ م ١٥١٠٠ (١٩٤٠) ق ١٠

جدا ، أني تنازها المصالح الخاصة ، - مها تكن ذات جاذبية
وسيجر في الانفس المرضى الوضعية - وهي التي وطئت عرش
الحكم ، الذي رفعه على رأسه مطأطئاً ، شعب يبلغ الخمسة
والخمسين مليوناً ، في ولاية « أجرا » (١) وطئته بعزة وكبرياء
مؤثرة أن تذوب ، في سبيل المصلحة الاجتماعية العامة ،
ذوبانا عبقرياً خالداً ، أجلسها على عرش الخلود الانساني ، في
كل قلب ينبض بالحياة والاخلاص والمودة المتقدمة ، للانسانية
جمعاء .

أجل وطئته بتقديمها ، واثرت أن تشاطر غاندي أقداس
جهاده ، وتذوق بنهم مرارة النفي والسجن والتشريد ، لانها
سمعت في أعماق قلبها الانساني ، صوته يدوي بجلال الوطن
الاكبر ، ليجمع إنسانه المختلف ، أديانا وأجناساً ولغات
أجل ، سمعت صوته يدوي في أعماق قلبها ، وقد وعث
ما وعته ، أن الاجناس واللغات والاديان لا تمزق أبناء الانسانية
ولا تنشر التباكر بينهم ، وإنما الذي يمزق وينشر التباكر ، هي
الانتهازية المجرمة والتجارة المفضوحة على حسابها ، والطفيليات
التي تسربت أوباؤها ، في تلافيف الاديان الالهية ، وقد وعث
ما وعته ، أن الله والوحي والانسانية والمصلحة العامة ،
والثقافة الرفيعة والحضارة ، تضم البشر بعضهم إلى بعض ،
كما تضم الاسرة العريقة ، الاخوة للبررة .

(١) مجلة الاديب ، حزيران ١٩٤٩

وهذه شقيقة الزعيم الهندي ، ومؤسس دولة باكستان
« فاطمة جناح » لم يفتها موقف وقفه شقيقها « محمد علي جناح »
بجاهد ويضحي في سبيل المصلحة الاجتماعية العامة ، إلا وقفته
مجاهدة مضحية ، فأثارها الخالدة لانقل أبدا عظمة وجلالاً عن
آثاره حتى ذكروا أنها وافقته في كل أدوار حياته ، وفي
كل أعماله ، وشاطرته الاخلاص والنبيل والجهاد ، فهي بين
الزعيمات الهنديات ، بناءة حرة ومؤمنة محاسة ، وذكية لامعة ،
فخر كبير للهند والاعلام . فمواقف الجندية والطبابة ترفرف
لها الاعلام ، والنمريض والاسعاف والصناعات الآلية الراقية ،
ترفع لها الشرفات ، فهي للهند والانسانية بمثابة خالدة أديب
في تركيا وجانف درك في فرنسا ولوراسيكور في كندا
وهند بنت ابي الجليش في العرب ، وأوغستينا في اسبانيا ،
وبوايسكا في انكلترا ، . . . على أن مكانة فاطمة جناح
الاجتماعية الحاضرة (١) ، لاتقل في شيء عن مكانة اخت
الزعيم الهندي ، « اللبانديت نهرو » مفوضة الهند ، في الولايات
المتحدة اليوم .

ومن من قارئتنا ، تجهل ما كان من شأن النساء
اليعربيات المفكرات ، اللاتي رأين فلسطين ومصيرها الخفيف
قبل ان يراه الناس حقيقة ماثلة بين أعينهن ، رأينه بعين
البصيرة والعلم ، بعين الغيرة على المصلحة للعامة ، فما طاب

(١) مجلة العالم للعربي عدد ٧ للسنة الثانية

لهن الغمض ، ولا لذهن العيش ، بل قمن ففقدن مؤثرهن
الشرقي الكبير ، وشرحن المخاطر المحدقة بالمجتمع العربي كله
وكانت في ذلك الرجال المسؤولين عنه ، وعن مستقبله وحياة
شعوبه ، بكتابات لاتزال إلى اليوم آيات بينات في بعد
النظر وعمق الفكر ، والتحمس الاجتماعي الواعي واليقظة الفذة
أجل كاتبين ، وهن العراقيات والمصريات والفلسطينيات
واللبنانيات والسوريات . . . ملوك العرب ، كاتب فاروق
وغازي وعبد العزيز ويحيى . . . وصرحن لهم بوقوع اليوم
الحتم الذي لا بد أن يكون !! يجلبابه الحالك وكل مخازيه
ومسئوليته . وصرخن وصرخن ، وذهبت صرخاتهن أدراج
الرياح (١) وقد أردن أن يبرأن إلى التاريخ والحق والقانون
وأن يبرأن إلى الله قبل كل شيء ، فسجلن على صفحاتهن أنهن
أدين الواجب ، سجلنه في كتاب لايزال يتلى إلى اليوم .
وهذه الجارة الكريمة الحبيبة ، ذات الاجتهاد الباذخ ،
والتاريخ النير « أمة إيران » قد استطاعت نساؤها المثقفات
المجيدات ، أن يقدمن برهاناً عملياً داوياً ، على أن المرأة في
الشرق ، لاتزال كأختها في الغرب ، تضحي بكل ثرائها وكل
سعادتها ، بل تضحي بنفسها في سبيل الانسانية ، والمصلحة
العامة والخير .
ها هن أولاء ، ينزعن أثمن حلين ، وآثره إلى أنفسهن
ينزعنه ويقدمنه لحاجات الامة والدولة ، حاملات على الحكومة

(١) كتاب « المؤتمر النسائي » المطبوع عام ١٩٣٨

الايروانية ، التي كانت تود أن تعقد قروضاً مالية كبرى ،
بينها وبين بعض الدول ، وقد انقذت إيران بعملهم المجيد من
فيوض الربا وما يجر وراءه من ذبول وذبول !!

وها هو ذا المفكر الهندي الكبير ، - الأمير علي - يطري
هذه الحادثة في مؤلفه (١) ويمجدها ، لتكون لنساء الانسانية
مناراً يستضيئون به ، كلما ادلهم ليل الحوادث واكفهر !!
وفي نهاية بحثنا هذا نرى من الواجب علينا أن نؤكد
لقارئتنا ، أننا لم نهتم بمنزلة اية امرأة اجتماعية أرخنا لها
ونوهنا بأجسادها وذكرها لأنها كانت ثرية أو جمة الحشم
والقصور والمركبات والحيل المطهرة ، لا لا ، ما كان هذا
بما يغرينا أو يغري سوانا ، وإنما قومنا بمنزلة المرأة الاجتماعية
في أنفسنا ، على مثلها الأعلى الصحيح ، على جوهرها الخالد
على اقداسها الثابتة على حقيقتها الازلية ومعنوياتها الذاتية
التي لا تتوَلد وإن زالت المادة وتداعى الجثمان وطويت الحياة
وأصبح الكل تراباً في تراب .

اجل جردنا كل امرأة قبل الكتابة عنها ، من زخارفها
الزائلة وتهاويلها الباطلة وثرائها ، ان كانت من ربات الزخارف
والتهاويل والثراء ، وعدنا بها إلى حقيقتها الثابتة الى روحها
واهدافها إلى مثلها العليا ، معلنين لقارئتنا أن إكبار المادة
قد يتسرب إلى النفوس السطحية الواهنة ويتغلغل في أعماقها
فيختلط الامر ، وتضطرب الموازين وتنهار الحقائق .

(١) مركز المرأة في الاسلام ص ٨٦

المرأة والمشاريع العمرانية العامة

تلك هي منشآت الحضارة والصناعة والعلم ، والمشاريع العمرانية ، قد تكون من عمل الفرد أو الجماعة والدولة ، والمرأة في انشائها يد بناء ذات عزومات لا تقصر عن يد ، على أن العمرانيين من الرجال الخالدين الذين لا تزال اسمائهم حتى اليوم ، تحيا بها الانسانية ، وهي تستمتع بالنظر إلى جليل آثارهم ، هم يد المرأة . فلولا أمهاتهم ومربياتهم اللاتي كن يشرفن بالتهذيب على عوالم مجموعات النفسية ، منذ الطفولة ، ولولا تلك الاغاني والافاصيص التي كن يتغنن بها لهم ، الساحرة الفاتنة ، حصول القصور الشاحات والحدائق الغناء ، ودور العلم ، والمؤسسات الخيرية لما قمت في أنفسهم صورها الرائعة ، موجبة مؤثرة تأثيرها العلمي في البناء والعمران بكل ما اوتوا من قوة ، إذن ، فروح انشاء المشاريع العمرانية العامة في الرجال ، سواء كانوا ابناء أو إخوة أو أزواجا ، إنما ترجع تربية نوايا بواعثها للمرأة ، سواء كانت اما أو أختا أو زوجا ، فالنفوس أبدا تشتمل على آميال الخير والشر ، وعوامل التقدم والانحطاط ، ودوافع العلم والجهل ، وصلاحتها إلى هذه أو تلك ، موكول أمره من أول يوم يتنسم فيه الانسان نسيم الحياة ، إلى المرأة : « المرأة هي المربية الأولى » .

وقارئاتنا إذا نظرن إلى تاريخ حياة المرأة ، يحدث لها بالذات فوق تأثيرها العمراني البناء في انفس الرجال آثاراً رائعة حقاً ، لا في هذا العصر فحسب ، بل في كل العصور علي الاطلاق .

أجل ، فالمرأة يد بناء ذات عزومات جبارة ، تفتزع الاجداد وتبني الخلود ، وما من جيل - مهما تغلغل في القدم - إلا والمرأة وشته بالعقريات الحسان من قصور شائخة ، إلى حدائق غناء إلى معاهد إلى ثكنات إلى معابد ، إلى أربطة إلى طرق كبرى ، . . . وليس هذا حديثاً اخترعته الاحلام ، بل حقائق حفل بها التاريخ ، غنينا باستقصائها من شتى الاسفار المطبوعة والمخطوطة ، وبسطناها منجمة حسب العصور .

مشاريع قبل الهجرة

أن الاكابر ليملاً صدور فارئاتنا حين يحدث الملكة المصرية « نيتو كريس » تحفل بالاقليم الشقيق العراق وتنهض بعمارتها فتقيم جسراً عظيماً يوصل ما بين شقي مدينة « بابل » وبينها شان الري ، والعراق كما يعلمن قطر زواعي خصب يمد الشرق الادنى بكل حاجاته ، فيما لو نظم التنظيم الفني العالمي . من أجل ذلك أقامت فيه « نيتو كريس » البحيرات الصناعية اذ نرى قطر احدى بحيراتها ٣٤٠ ميلاً ، وشقت الجداول والاقنية ، وأصلحت الزراعة كل الاصلاح ، وكان العناية الالهية التي ترعى العراق الكريم بوعايتها ، وتلبسه

ثوب الابداع والعز والحضارة ، ليكون نبواس الشرق المشع
وهده الوضاء وأسوته الكريمة ، لم ترض عن تلك الاحداث
والخطوب التي هدمت إصلاحات نيتوكريس فاناحت لاهياء
هاتيك الإصلاحات بعد أجيال ، الملكة « ميرياميس » وهكذا
لم تكدر تتداعى إصلاحاتها بعد قرون متطاولة وحقب ، حتى
هيا الله للعراق اهتمام الدولة العباسية لاهياء مجاري الحضارة
وطرق الحصب والزراعة كما كان في عهد الملكتين الساميتين
على أوفى نصيب ، وبألت الذين يسقطون في الانتخابات السياسية
الاقليمية كاستاذنا السكاتب العربي الكبير « العقاد » (١) ،
لايتذرعون بالطعن في سياسة الدول العربية العامة ، انتقاماً
لأنفسهم من دولتهم ، بل باليتهم يدركون ما ادر كته
الامبراطورة المصرية « نيتوكريس » منذ سبعة وثلاثين قرناً ،
من أن البلاد المتجاورة التي تجمعها وحدة المصالح ، يجب
أن تجمعها وحدة القوى السياسية ، والاقتصادية والعسكرية .
ياالله ، ما أخلدها وأكبر نفسها وأبعد رأيها ، وأسمى روحها
حين نهضت بإصلاحها العظيم في العراق وحين فهمت ، وهي
في تلك الازمنة السحيقة ، وليس لمجاعات الشرق للعربي ،

(١) لو أن كاتبنا قرأ كتاب « معني النكبة » لرئيس الجامعة السورية
المفكر الكبير والعربي الحر « قسطنطين زريق » ، لما جرؤ أن يصم
زعماء السامية المصريين بالحيانة ، وهم الذين يرأبون الصدع ويجمعون
الكلمة ، ويشيدون عزة مصر والعروبة بفهم عميق ونظر بعيد .

بومذاك من أسباب التفاهم وتبادل المنافع ووحدة الثقافة والروح ، ما هو لهم اليوم - ما لم يفهمه العقاد .

وإننا نطلب إلى قارئتنا ، أن يسارعن في الغضب ، حين يرين القطيعة الانسانية تبدو من أثلاث قلم حر مفكر ، أفضت به أثرة الغضب لنفسه ، أن انغمض عينيه كي لا يبصر وحدة الولايات المتحدة ، وهم مختلفون أجناساً ومتباينون طباعاً ولكنهم اجتمعوا لان المصلحة والعزة والكرامة فرضت ذلك وما كاد العصر العربي الذهبي ينطوي ، وتظل الأمة العربية في العراق سارحة في مجاهله ، ظمأى والمياه تتدفق بين يديها ، جائعةً ومناهب الغذاء تطفح في وجهها خصوبة ، فقيرة والكنوز تذخر في ساحاتها ، حتى قبض الله لها في هذا العصر ، (١) رجالاً نهضوا ليعيدوا للعراق تليد أجداده ووفرة انتاج أرضه ، وكبير معارفه وسمو منافعه .

أجل ، إن « سميراميس » ملأت صدر التاريخ فخراً وإعجاباً ، حيث استطاعت أن تعيد الطرقات العامة ، وتقرض الجبال التي وقفت في وجهها قرضاً .

(١) استقرضت الحكومة العراقية هذا العام ١٥٩٠ مائة مليون جنيه ، كما ذكرنا

راجع عن نيتو كريس ، ميخائيل غبريل ص ٢٠ ومختصر التواريخ للقس رحمان ص ٤٩

ها هي تسوق مليوني عامل لاقامة الجصور وشق الجداول
والانهار ، وإشادة امنية الري لارواء الاراضي الفاحلة البعيدة
وتقريب المسافات لربط اطراف المملكة ، وكم لها من
قصر مشيد ، ودار حكمة شاححة ، ودار كتب ضخمة
ومستشفى أنفقت في سبيله الألوف ، وحسبك لكي تدرك
مدى امكانياتها وما اوتيت من سعة ملك أن أعلامها كانت
تترف خفاقة بالأجداد والعزة والسلطان ، على أربعة أبحر :
الأبيض المتوسط والأسود والأحمر والمحيط الهندي (١) وقد
جاءت حدائقها العامة المعلقة ، آية الآيات فذا وإبداعاً
وسجراً ، صاغت يد العلم على طراز ساحر بديع ، جعلت
أنهارها تصعد مطردة ، جداول جداول ، والعهد بالمياه تهوى
منحبة .

ونحن إذا تعمدنا أن نتجاوز قصر « زينب » الفخم ، وحدائقه
الفناء ، معتبرين ذلك مما يمس الاثرة من حظ نفسها ، ونختص
بتعرفها ، فانا لا نستطيع أن نتجاوز آثارها الخالدة ، ومشاريعها
العمرانية العظام في بيروت وجبيل وطرابلس التي نوه
بذكرها العلامة المؤرخ ميخائيل غبريل اليسوعي . (٢)

(١) راجع كتاب مركز المرأة في الاسلام ص ١٠ وكتابنا الاول
من هذه السلسلة .

(٢) راجع كتابه للتاريخي المطبوع في مطبعة الآباء اليسوعيين ،

بيروت ١٨٩٤ ص ٣٩

أجل ، كيف يسوغ لنا أن نهمل ذكر مشاربها العمرانية العامة ، التي سهرت على انفاذها وإقامتها وانفقت في سبيلها الثراء الجلم ، حتى أوصلت المياه إلى ثلاث مدن تاريخية : من نهر بيروت إلى بيروت ومن نهر إبراهيم إلى جبيل ، ومن ينبوع قديشا إلى طرابلس (١) بله مشروعها العظيم الذي يربوا على كل مشروع قامت به ، وهو جر مياه العاصي من منبعه في « اللبوة » إلى « تدمر » الذي لا تزال آثاره وقنواته وبحاربه باقية حتى اليوم ، بل وبعضها ينتفع به

ونحن حين نستجلي تاريخ الأمة العربية القديم ، ونستعرض الأعمال الخوالد التي تمت على يد ملكتها « زينب » نؤمن بقدرة المرأة العربية ، وأنها إذا أرادت النهوض ، فإن يقف في وجهها الحواجز لأن عزيمة الانسان الحلي المهذب ، اذا كانت مشحوزة قوية ات بالمعجزات .

ولعل بعض قارئتنا غير المثقفات ثقافة واسعة ، يعجبن حين يسمعن أثر زينب في هذه المواطن ، لكن إذا قلنا لهن : إن التاريخ الخالد يحفظ لهذه الملكة الكبيرة ذكربات من الاعمال ، والآثار الفذة ، ما يجعل مشروع جر المياه إلى هذه المدن ، أوفى ما كان لها من أنجاد لا تبلى ، زال عجبهن . ألا إن التاريخ ليمد اصابعه مشيراً باعجاب وإكبار إلى رايستها التي كانت توفرف في شرق الارض وغربها . (٢)

(١) اعلام النساء ١٠٥٢

(٢) خفقت اعلامها من آسيا الصغرى إلى مصر إلى تخوم نجد -

وهذه الاميرة الفارسية « بوران بنت كسرى أبرويز »
التي كانت تسهر على المصالح العامة ، وتذخر لها قواها
وإمكاناتها وتقول : « ليس بالحرب والبطش والفنك تكتسب
البلاد ، ولا بمكايد الساسة ينال الظفر ، ولكن بالاحسان
والعلم والمشاريع العمرانية العامة » .

ولم يكن قولها هذا مما يقال على السنة السياسية
الانتهازيين ، الذين لا يحملون فكرة الإصلاح ، ولا يفهمون
منه جلال افضلية وكبير مكانتها ، بل كان قولاً ينبثق
عن العقيدة والعمل ، ويصدر عن الجهاد والتضحية ، فهي
التي أقامت الجسور ، وبنت القناطر العامة في كل أطراف
المملكة ، وبسطت المدن وانشأت القرى والمزارع (١)

مشاريع المرأة بعد الهجرة

هذه « الخيزران » زوجة الخليفة العباسي « المهدي » التي
بلغت من حسن الرأي وجودة الفكر ، مبلغاً رائعاً لدى
زوجها وكبار رجال الدولة ، والتي لم تسدع فرصة تمر
وتستطيع أن تصنع فيها صنعة خالداً ، إلا وانتهرتها ،
فكانها ثقلت الحياة بالماء الصيب المنسكب ، إن لم ينبت

— وهي اول من جرد الساقة لحماية الجيش وارتداده قال خصمها
القائد الروماني « خذوا عنها فن الحرب » راجع كتاب نهضة
المرأة المصرية ص ٦ وص ٢٥ من كتابنا الاول

(١) مرجح العيون ص ٥٢

الفراس الحسن والذكريات الخالدة مر سريعاً وذمب هدرأ
بين مجاهل الارض ، وأنبت الحنظل والقتاد ، أو ابتلعت
ظلمات البهار .

أجل ، شيدت الخيبرات المساجد والمعاهد المحتاجين ،
وأجرت عليهم الارزاق ، وقضت على التسول (١) بيد برة
خصبة ، تفيض خيراً ورزقا وقد نوه المؤرخون بأن كل أعمال
المهدي العمرانية ، إنما كانت بايعازها وتأثيرها (٢) ولا يضربا
بعد ذلك ، ما تحدثوا به عن الخصومة الغنيمة التي نشبت
بينها ، وبين ولدها الخليفة الهادي ، حين غل يديها وحد
من نشاطها ، مما لايعنينا ذكره ، وليس مما تعافدنا على
التنويه به . (٣)

وهذه « زبيدة » التي كانت أشبه المملكات العمرانيات من
النساء الخالدات بـ « سميراميس » فلها أيضا شق الطرق
وتشييد المعابد ، وإقامة الجسور والقناطر ، ولها آية الآيات
التي تزيد قيمة وخلودا ، ونفعاً عاماً مستورا ، عن الخدائق

(١) كذلك حكومة الاندلس إذ لم يكن أيام عبد الرحمن الناصر
متسول ، وكذلك الهند أيام الملكة « راضية » راجع الحلال
الهندسية للامير شكيب ارسلان ، والكتاب الاول من سلسلتنا
هذه « بحث راضية »

(٢) راجع حقوق المرأة في الاسلام ص ١٣٧

(٣) محاضرات الحضري ٢-١٣٦

المعلقة ، لها « عين زبيدة » في مكة المكرمة . فقد آلمها أن ترى الظلم ، يحرق أكباد الحجاج ، في أسنى مؤتمر عالمي ، وأطهر اجتماع إنساني ، مؤتمر يقصده الحجاج من كل فج عميق ، مؤتمر يبدو فيه السلام والوحدة الانسانية ، في أصدق المعاني الحقيقية الصحيحة .

أجل ، آلمها ذلك ، فأنشأت المشروع العظيم الخالد ، مشروع جالب المياه إلى كل مواطن احتشاد الحجاج ، إنه مشروع فريد من نوعه في العالم لم توفق امرأة ، قبلها ولا بعدها ، إلى إنشاء مثله ، مشروع كبير قد التهم جل ثروتها ، وكيف لا يلتهم جل الثروة ، وهو جر الماء من جبال « كرى » القريبة من الطائف ، إلى عرفة فمى فمزدلفة فمكة ، في بلاد كثيرة الوهاد والجبال ، وفي زمن لم تكن فيه الوسائل الآلية المعروفة اليوم ، ومهما يكن من تنويه بعظمة هذا المشروع . فحسبه أنه انتج لها المجد والخلود والذكر الحسن ، وأنه لا يزال بجذائره كأنه من نتاج هذا العصر . والله ما أصدق أبي العتاهية حيث يقول

إن مال المرء ليس له منه إلا ذكره الحسن

وها هي تحج ، وترى أثر النعمة ، التي أفاضها الله على يديها لعباده ، فتشكره وتأبى أن تراجع مجلدات الحساب الضخمة ، وتأمر بحرقها قائلة : هذا منه واليه . وحين رأته الحجاج الذين يقصدون مكة ، من طريق العراق ، يجهدون

أفلة الماء ، أوفدت المهندسين والعمال لحفر الابار وتوفير المياه في كل المحطات ، بما لا تزال آثاره إلى اليوم .
 ألا سقى الله ابنة جعفر صليب وحمته ، وأغدق عليها غيث غفرانه ، فما كانت خزائنها لتبقى باسمها خالدة ، لو لم تفتحها على مصراعها ، لإنشاء ما أنشأت من المشاريع العامة .
 وغفرانك اللهم لأولئك الذين حملوا عليها الحملات العنيفة زاعمين إصرافها في ملابسها وتجاوزها كل حد ، حتى رووا أن ثمن ثوبها الواحد قد بلغ خمسين ألف درهم ، (١) ونسوا أن ابنها « الأمين » تألم لبسطة ملابسها ، وخلوه من كل زينة وحلي ، وهو يشاهدها تنفق القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، في سبيل إنشاء المشاريع العامة ، وعاتبها في ذلك عقاباً رفيقاً لنا ، ولم يعلم أنها ترفعت عن أن تهبط في معنوياتها ونفسياتها ، إلى مستوى النساء الجاهلات ، اللاتي يحسنن العظمة في خرقه تبلى ، وعقد يزول ، وذهب بذهب ، لو لم تصارحه بذلك قائلة « ترفعت يا بني عما يفعل النساء ... » (٢)
 ألا إن قطر الندى « أم المقنذر العباسي ، لم تكتف بتشييد

- (١) راجع مقامات الحريري شرح المقامة التبويزية للشريشي .
 (٢) قد اشتهت زبيدة في ترفها « كورينيليا » ابنة القائد الروماني « سيديون » قاهر « هانيال » القائلة حين سئلت عن ترفها عن الحلي « حسي حليا ، هذان المثقفان المذهبان » وأشارت الى ولدها .

راجع مركز المرأة في الاسلام ص ١٢٤

مستشفاهها العظيم في بغداد ، بل أرصدت أوقافاً لنفقائه ،
أوفت على سبعة عشر ألف دينار في العام الواحد . (١)
كما « ان تفريد » زوج المعز الفاطمي ، تشييد مسجدها
العظيم في قرافة مصر ، وترصد له الاوقاف وتعين له السدنة
بكل خشوع وتقوى (٢)

وما أشبه « خاتون » بنت الامير مسعود ، بالسيدة
زبيدة ، حين اقامت مواطن وعمارات للغذاء والماء ، لتكون
عيناً للحجاج ، وتسييراً لقوافلهم ، وأمناً على أنفسهم ، من
حدود الافاضول إلى المدينة المنورة . (٣)

وهذه السيدة « زمرد » أم اسماعيل ، زوجة الملك أتابك
زنكي ، ووالدة الملك الصالح محمود زنكي ، أنشأت في
دمشق المعهد العلمي المشهور باسمها وأجرت للفقهاء الرواتب
الضخمة ، وشيدت بجانبه مسجدها الفخم ، حفظاً لوقت الطلاب
من الذهاب إلى المساجد البعيدة ، ويقول المؤرخون : « إن
أوقاف هذا المعهد بلغت من الكثرة ، ما جعلته أغنى
المعاهد العلمية » (٤)

(١) محاضرات الحضري ٢-٣٣٥ وركز المرأة في الاسلام ١١٥

والكتاب الاول من هذه السلسلة ٢٧

(٢) تاريخ الاسلام السياسي ٣-١٤٦

(٣) اعلام النساء ٢٦٣-

(٤) كتاب الدارس ٢٠٥ و٥٠٣

وقد اقتفت أثرها زوجة ولدا محمود زبكي ، السيدة
« عصمة الدين » بنت معين الدين ، فأنشأت بدمشق معهداً
للفقه ، و « صفة » (١) على ضفاف نهر بانياس (٢)

والسيدة « زهرة » بنت الملك العادل سيف الدين أيوب
دفعتها حبها للعلم ، إلى أن تثنى المدرسة العادلية الصغرى ،
التي لا تزال إلى اليوم قائمة في دمشق ، ولا يزال اسمها
منحوتاً على بابها ، وكذلك أرصاها الهائلة التي حُبست
للفقه عليها ، وعلى الرغم من نقشها فقد ابتلعها النظار
والقائون عابها في عصور الانحطاط . (٣)

وكم كان رائعاً مطلع الاخوات الثلاث ، بنات نجم
الدين أيوب ، في سماء الانسانية .

فاما الاخت الكبرى « ست الشام » فلم تكتف بالمعهدين
العظيمين ، الذين اقامتها بدمشق للعلم والمعرفة ، ولم تكتف
بما حُبست لهما من خراج ، بل حولت قصرها الفخم ، إلى
مستشفى يؤمه الفقراء من كل صوب وبطبيون ويعطون
الادوية والعلاجات ، هبة من فيوض يديها ، حتى قال مترجموها :
« كانت تنفق في شراء الادوية ، الالوف من الدنانير »

(١) اطلقنا اسم « صفة » على ما يدعونه « تكية أو خانقاه » لوجود
اسم صفة منذ العصر النبوي ، وكل الذي جدد ، هو التطور في
البناء والهدف .

(٢) و (٣) الدارس ٣٦٨

وأما الاخت الوسطى ، فقد أبت نفسها الكبيرة ، إلا أن تساهم في بناء الحضارة والعلم ، وأبت إلا أن تشاطر اختها ، في تشييد المشاريع العامة ، فانفقت في بناء مدرستها « الصحابية » الهائلة ، الكثير الكثير ، وكل كانت طالما سعيداً وتوفيقها حياً ، فيها أنت ذا ترى في صالحة دمشق ، مئات الطلاب إلى اليوم ، يؤمونها زمرا زمرا . ولم يكن حظ اختها الصغرى ، بأقل من حظها ، فقد شيدت مدرسة وحبت أرساداً (١)

هذا تنافس الاخوات المؤمنات في سبيل تشييد المشاريع العامة ، وهذا سباقهن في حلبة الخلود والمجد ، وهذه الدنيا تبسط راحتها إلى اليوم مبتهلة لهن ، أن يسبح على ذكرايتهن أممي مراتب الرضوان والخلود .

وكم نرجو لبنات الانسانية الأخوات في مشارق الارض ومغاربها ، من الاجاد والذكرى والاكبار ، ما احرز هؤلاء الاخوات الثلاث (٢)

(١) نتحدث عن الاخوات الثلاث الانكليزيات المعاصرات شارلوت واختها ، في كتابنا الثامن ، المختص بذكرى الاديبات مشيرين إلى فضل الاديب المفكر الحيد محمد اديب حسن عيتاني الذي افادنا ذلك من اللغة الانجليزية . كما نتحدث عن كبيرات اديباتنا اليعربيات (٢) عاش الاخوات الثلاث اوائل القرن السابع للهجرة واكبرهن زوج صلاح الدين الايوبي . راجع الدارس ١- ٢٦٧ و ٣٠١ وشذرات الذهب ٥- ٦٥ والمروج السندسية ٤٠ و ٤١ (٣) (٤)

وهذه الوجهية الفرنسية الثرية « مرغريتا دي فالو » التي لم تفتن بما كان يفتن به أتباعها من الزخرف الزائل ، والبحرج الخلاب الممقضي ، بل جعلت كل همها وعنايتها في خدمة الانسانية للبائسة ، وتوفيه عيشها وإزاحة البؤس والفاقة عنها فأسست ملجأها الكبير للقطاء (١) بفرنسا وانفقت عليه من الاموال الكثيرة ما انفقت .

وهذه « شوكارقاص » الاميرة الجركسية (٢) التي لا تزال مصر حتى اليوم ، تعزّز بمشاريعها الخالدة . أما أجرت مياه النيل إلى كثير من المدن والقرى العطشى ، اما شقت الفجاج ويسرت للسابلة والتجار كل صعب في اوجههم ومهدت لهم ما التوى عليهم ولم يستطيعوا له تمهيداً ، أما أدركت عظمة القرآن الكريم ، وأنه الواعظ والزاجر للنفوس الجاحجة المتوثبة للشر والفتك ، فذثرته في كل مكان وموطن للإبلاغ والانذار . أما اوجعها أن تبصر فريقاً من أبناء الامة المصرية

(١) هي حاملة الراية اللوثرية بفرنسا لها باع طويل في السيامية والادب واللاهوت ، توفيت عام ١٥٥٠ وسيلاني ذكرها في بحث « العلم والادب » الدور المنشور ٤٩٣

(٢) إن كثيرآ من قارئتنا الكريمات يخلن اخوتنا الجراكسة تعربوا منذ دخولهم الشام ومصر ، وما علم أنهم استعجموا منذ الازمان القديمة ، وأن استعراهم هذا لم يكن إلا من قبيل العودة الى الاصل راجع كتاب قهر الوجوه العابسة ، لنسب الجراكسة « ص ٤ الى ٩

الكرمية ، لا يكفي دخل أعمالهم لكل حاجاتهم من الغذاء
والكسب ليكونوا أفراداً صالحين للحياة والعمل والانتاج في
المجتمع فأمدتهم بكفاياتهم من الغذاء ، وقدمت لهم الضحايا سنوياً ؟
ألا إن عام الف ومائة وخمسة وثمانين ، لا تزال صفحة
ناصعة بحجة وقفيتها الخالدة .

مشاريع العصر الحديث

وإذا كانت الدنيا بأسرها تفخر بأقدم جامعة لها « الجامعة
الازهرية » (١) . فات مصر تعتبر الجامعة الازهرية الدرة
التيمة التي تتعلّى بها ، في كل محفل وتنفخر وتعزّز وتمجد .
وما من أسرة مالكة رجلاً ونساء منذ عهد الفاطميين
البواسل الذين شيدوه إلى اليوم ، إلا وتحنّض الازهر بكلنا
يديها ، وتقدم بكل امكانياتها قوة واجداد وسلطان ومكانة
مدرّكة تمام الادراك أن في الجامعة الازهرية عزة مصر
(١) اشتق اسم الازهر من الزهراء سيدتنا فاطمة عليها السلام ،
ام الفاطميين ومن هنا قال شوقي :

يا معهداً افنى القرون جداره
وطوى الليالي ركنه والاعصر

في الفاطميين انتمى ينبوعه
عذب الاصول كجدهم متفجراً
يريد به جدهم الاعلى ، باب مدينة العلم وكنز المعرفة ،
امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

العلمية الخالدة ، وعزتها بالتالي .
وهذه الاسرة العلوية المالكة ، لم تكن بأقل اهتماماً
وسهرّاً وإكباراً وتقديراً من كل الأمر المصرية المالكة ،
فكم لمحمد علي ، وإسماعيل وتوفيق وعباس وحسين كامل
وفؤاد الاول ، من إياد بيضاء مشيدة دوراً شاحخة ، ومبسوطة
مزارع نضرة ، ومذخورة مكاتب فخمة ، ومتدفقة اموالاجمة .
وهذا جلالة ملك مصر « فاروق الاول » يدوت له
التاريخ ما يطوق به جيد الازهر كل يوم من فلاة أو لبة
أو عقد كريم .

وإذا ذكرنا الرجال من أبناء الاسرة العلوية الكويتية ،
وكل له فضله وعنايته وخدماته للجامعة الازهرية ، فلا يفوتنا
أن ننوه بنساء هذه الاسرة ، وما حوادث أوقاف ام عباس عنا
بعيدة بل انظر إلى هذه الاسرة وهي في طليعة ايجادها وبسط
اعلامها وتركيز قواها ، كيف تقوم « زينب » بنت محمد
علي الكبير بكل هذه الاعمال الخالدة للجامعة الازهرية ،
التي دونها لها التاريخ وحفظها في صميم قلبه ، وهؤلاء هم علماء
الازهر الابرار لايزالون يبتهلون لها في صلواتهم ، وحلقات دروسهم
لتكون رحمت عليها وبركات .

ألا ان أعمالها ليست بالقليلة ، وما بالقليل ما يبذل المالكات
والمالكون ، وكيف يكون قليلاً تلك المزارع التي تبلغ
ربعها في العام الواحد عشرين ألف جنيتها ، وكيف تكون
قليلاً تلك الرواتب الضخمة التي عينت لمدرسي الشريعة

الاسلامية ، وكيف تكون قليلا تلك المبالغ التي كانت تنفق شهرياً لاعالة اربعمائة أسرة من كبار الفقهاء ، وكيف تكون قليلا تلك الاوقاف الجمة التي ارضعتها لاربعة عشر تمسجداً (١) من مساجد مصر الكبرى

وكم من خلود لأحمد باشا المنشاوي في « القرشية » حيث نهض بالعلم والجامعة (٢) الازهرية والحرمين الشريفين ، بما أوقف من الوف الفدادين ، وهذه ابنته نهجت نهجه في

(١) اعلام النساء ١-٥٢٠

(٢) قد اضطلعت الجامعة الازهرية ، منذ الف عام أو ما يزيد بأعباء الدعوة الاسلامية ، وإبلاغها إلى الامة المحمدية بقسميها ، أمة الدعوة وأمة الاجابة ، إبلاغاً سامياً رفيعاً يليق بكبير مسكاته العالمية

وإننا نأمل في عهد جلالة الملك « فاروق الاول » وشمس الازهر العلامة الشيخ « مأمون الشناوي » وهيئة كبار العلماء والحكومة المصرية ، أن يستعيد الازهر رفعة مسكاته التاريخية وعظمة قواه المعنوية ، فيدخل كل العلوم من طب وهندسة وحقوق وفلسفة ومساها ، شأنه بالامس ، مؤسساً لكل فرع كلية خاصة ، حتى يصدق وجود اقدم جامعة في مصر ، إذ لا يزال تاريخ الازهر لليوم ، يحفظ لجوه الفيلسوف اليهودي الاندلسي « موسى بن ميمون » إلى الازهر حين سقطت الاندلس الاسلامية ، ولم يجد من يضمه ويفيد من علمه سوى الازهر .

عنايتها بالمصالح العامة وسهرها عليها ، ولا غرابة إذا اوقفت
 مائة وأربعين فدانا لمدرستها المجانية (١) ، فان النشأة الصالحة
 السامية ، في البيئة الكريمة ، لابد أن تؤتي أكلها طيباً
 وكم يسعدنا أن ترحل قارئتنا إلى « شبرا » في مصر ،
 ويشاهدن ذلك المسجد الفخم والمدرسة المجانية الكبرى
 بجانبه ، وذلك المستشفى العظيم ، وينظرن إلى اسم المحسنة
 الكبيرة « الحازندارة » وهو في أعماق القلوب ينضرب بالحنان
 والاشراق ، ويسطع بالاكبار والاجلال ، وتلك الاسنة
 الرطبة التي تطره بسابغ الرحمت ، ليدركن عظمة المرأة
 الخيرة الصالحة ، وجلال مكانتها في انشاء المشاريع العامة
 وهذه التقية البرة « هيلانة سياج » التي أخافها فسو
 الاحاد ، وجنوح الناس عن هدى الوحي فشيدت بأموالها
 الخاصة في مصر كنيسيتها الشهيوتين ومدرستها الخيرية المجانية
 للإصلاح ، والدعوة إلى الله ، وقد حبست لهذه الغاية السامية
 اوقافاً بلغت نفقاتها مائة وعشرين ألف جنيه مصرياً (٢)
 وهذه فتاة الهند العزيزة العمرانية المثقفة « بندينا رامباي »
 التي ضربت الجهل بعصاها المقدسة ضربة قاضية ، وشيدت
 « دار الحكمة » في الهند ، هذه الدار التي قتلت الجهل
 واشتعت النور وحركت العقول وأثارت الاذهان وطعنت
 الفقر طعنة نجلاء بما اقامت من مصانع للاشغال اليدوية .

(١) اعلام النساء ١-٢٢٥

(٢) توفيت عام ١٩٢٨ ، اعلام النساء ٣-١٦٤٤

وكنيسة للعبادة (١)

وإذا أرادت قارئتنا أن يدركن جليل مكانتها في
الشباب والشباب في الهند ، وسعة نفوذها وصدق إيمانها
في الدعوة إلى الله فحسبهن ان يعلنن إذا سمعن إطلاق اسم
« موسى الهند » أنها هي المقصودة

ولا يفوتنا أن ننوه بالمعهد الكبير الداخلي الذي أنشأته
في دمشق السيدة « سامية قبانية » لايواء اليتيمات والمعوزات
وتعليمهن العلوم والصنائع وتقديم كل حاجتهن (٢) على
أحسن حال وأنبأ غاية

وقارئتنا لا بد أن يجدن روح إيمان السيدتين البرتين
« مدام دومط » و « مدام بسول » ، ويكبرن اخلاصهما له ،
وسخاهما في سبيله . . .

نعم سيدت « مدام دومط » كنيسة الضخمة في مجدهون
لتكونا عوناً على تذكير المصطفين بالهدى ، وزجراً للمجدين
الملتوين على شهواتهم التواء الأفعى . وسيدت « مدام بسول »
بيعتها الشاحخة في بيروت لنفس الغاية .

وعملها هذا فوق كونه حرباً للمادية الطاغية وحفظاً لروح
الشرق المؤمنة الوداعة ، فانه حث للنساء المنظوبات على ثرائهن
انطواء العقرب على نسلها المجتمع على ظهرها ، إذ كل ما
ينلنه من وراء ذلك هو الابادة الماحقة مثلها .

(١) توفيت هذه المحسنة عام ١٩٢١ كتاب اربع شهرات

(٢) هذه المحسنة لا تزال تجد في تقدم معيها الى اليوم حفظها الله
ورعاها

فياحبذا ذكر السيدتين النبيلتين ، ويا حبذا ما أغدقتا
في عصرنا هذا على جلال الايمان ، من أبحار روحيهما الطاهرتين
وكننا نود أن نبسط القول في مشاريع نساء أوروبا
وأميروكا المعاصرات وتوكيا والباكستان والهند ، ونسأنا في
المجتمع العربي ، ولكن خفنا على كتابنا هذا أن ينقلب
معلمة ، على أن معلمة التراجع التي نعني اليوم بجمعها تشمل
في مجلداتها ما نضطر إلى إرجائه ، خشية الاطالة المملة .
وحسبنا الآن أن ننوه لقارئتنا الكريمات ، بذكر المجاهدات
القائمات بأعباء جمعيات الصليب الاحمر والهلل الاحمر ،
وجمعيات مقاومة السل والرقق بالحيوان ، والناهضات بتأسيس
المستشفيات والمعاهد ، والعاملات على نشر الثقافة والعلم في
البيئات الفقيرة الجاهلة والقرى السحيقة والصحارى البعيدة
والواحات النائية .

ألا إن جل الأيدي العاملة البناءة ، والقلوب الطاهرة
الخفاقة بروح الانسانية ، والنفوس المضحية المجاهدة المتساحجة
هي من صنع المرأة .

وقد تعجب قارئتنا المثقفات لامساك التراث في الشرق
العربي اليوم ، دون أن يرصدن بعض ثوائن للأعمال
الاجتماعية العامة ، شأن جداتهن من قبل ، اللاتي حفظ
التاريخ لهن أطيب الذكريات الخالدة ، ولكن قارئتنا لو
علمن أن هؤلاء التراث جاهلات ، لا يعرفن قيم الخلود

والذكر الحسن على السنة الاجيال ، ولا يدركن المنافع
التي ينتفعن بها في حياتهن وبعد موتهن ، لعذرهن عذر الفاهات
أن أمساكن ليس بخلا كما يصمنهن ، إذ هن يدركن أن
المال سيمتركه في أرضه ، ويقذفن في حفرةن المظلمة دونه ،
واكنه الجهل ، والجهل - يا افساه - ينهض عذرا في مثل مجتمعا !!
وكم يفرح قارئنا أن تزيج عن أنظارهن ، سد
ظلمات الشقاء ، وضعف استرخاء العزائم وارزاء الاهواء
الشنيعة ، التي تراكت على بلاد اليمن الشقية اليوم .

وكيف لا يفرحن أن يشاهدن في موطنهن الحبيب
« اليمن » ، عرباً غير هؤلاء العرب ، وجماعة غير هذه
الجماعة ، أي يشاهدن بلاد اليمن السعيدة ، كما نعتها المؤرخون
يشاهدنها في جلال أجدادها ، وغرائب صناعاتها ، وبطولة
ابنائها ، وعبقريات ساستها وأقداس إخلاصهم ونبلمهم . (١)

ونحن إذ نعرض لن اليمن في أفوافها التاريخية . المسحورة الرائعة
لأنبعد كثيرا إلى مباء وخمير ومعين ، وعصور بناء السدود ،
ومشيدي القلاع والحصون ، بل نعرضها في عصر جد قريب
اليمن ، عصر الملكة العظيمة « هند بنت أبي الجيش » ،
الملكة التي أوجعها ، أن ترى شيخوخة والدها تهتم ،

(١) عرف سامة اليمن بالدهاء وبعد النظر والاخلاص ، وهذا
سياسي يماي « المنصور بن أبي عامر المعافري » استطاع أن يوحد
الاندلس بعد ان كادت تنعزق .

وعذب ولاته يربو يوماً فيوماً ، خصومات وفتناً ودماء ،
رغبة في الملك الزائف ، وإمعاناً في انبذخ والترف ، على
حساب الضحية المسكينة « الأمة » وما كاد والدها يسلم حياته كلها
إلى التاربخ ، ويستريح إلى الموت في عالمه الثاني ، حتى
الفت هذ نفسها ، وجها لوجه ، حيال مملكة متداعية وشعب
ذبيح ، وولاة اقتسموه غنائم ، وأقاموا موائد حظوظهم
على امتصاص دمه ، وهدم وحدته ، فسخرت بهم جميعاً وأخذت
تفكر في الإصلاح وترميم الصدع ولم الشعث على الرغم منهم .
اجل ، فكرت طويلاً وشمرت للعمل والمغامرة ، وأبت
أن تستنم إلى الدعة والراحة ، متلمذة بما فضل بين يديها
من رقعة مملكة مبتورة ، تاركة شئون الأمة تجري في أهوالها
إلى الفوضى ، إلى الانحلال إلى الموت ، ألا إن هذاً ملكة
مصلحة بطلة مفكرة ، سمعت صوت التاريخ والعروبة ، بل
سمعت صوت الله يجلجل في أعماق وجدانها الانساني الخي ،
وضميرها المذهب الفذ ، مهيباً بها : هلمي هلمي ، إلى الخيانة
إلى المجد ، إلى خير العمل ، سيوري سيوري ، فإن الله بقبض
لك الانصار والجاهدين الابطال ، سيوري فإن الذين يسعدكم
ما يسعد الجماعة كثير كثير ، إنهم ينتظرون البد الجريرة
التي ترفع العلم ، حتى يهوا من كل مدينة وقرية كالأعاصير
الجرار .

ها هي ذي أبرمت أمرها ، وجمعت ابطالها ، ونادت في
كل مكان بوجود الوحدة السياسية ، ونحطيم الغنصاصر

المربضة الممزقة ، نادت وقد أتبعته نداءها بالنضال العملي والذود والدفاع ، حتى أمت الوحدة السياسية في السنوات الاولى من تملكها ، ولم تكتف بارجاع الحياة الموحدة ، الى المقاطعات المنفصلة على أيدي أولئك الولاة ، بل أبسكاها وأوجعها ، أنها كانت ترى مقاطعات عربية أخرى ، تعيش في عزلات مشالولة ، وبعبدة عن حيوية هيكل الامة الموحد ، وهي في أشد الحاجة الى سعادة التعاون وقوة الاجتماع ، وسمو تبادل المنافع والمصالح ، ولكن مثلها في جلال حيويتها العملية المغامرة ، لا يلد لها طويلاً الحسرة والبكاء ، وهي تملك قلبها الكبير ، وفكرها الثاقب ، وعبقريتها السياسية ، ودهاءها الحير النير : أثارها مرة ثانية حرباً شعواء وأخذت تضم ما استطاعت من الاعضاء المبتورة الى الجسم « الام » .

أجل استرجعت هند الولايات التي انفصلت بعمل الحائنين الممزقين في حياة أبيها ، استرجعت : صنعاء ، صعدة ، نجران ، بيعات ، (١) لحج ، (٢) ، أبين (٣) ، عدن (٤) ، وسائر الخاليف ، وحضرموت ، ومرباط .. وضمت اليها شطراً من الحجاز . . . ولم يبطرها هذا العمل الكبير ، ولم يصرفها عن التبصر في عواقب الأمور ، ولم يغرر بها ، بل علمت

(١) تتبع الحكومة السعودية

(٢) و (٣) محبتات

(٤) في رعاية بريطانيا

أن بناء الوحدة السياسية في الامة ، مهما اتسع فهو كالميكمل
العظمي ، لا يقوى على البقاء والاستمرار إلا بوفرة عنصر الحياة
الاصلي « الدم » ، وعنصر الحياة هنا ، الثروة . والامة التي
تفقد الثروة لا وزن لاجتماعها ، على أن مادة الحياة لا تستمطر من
السماء ولكنها تستنبت من الارض ، وهي وشيكة الحصول ،
لا تحتاج إلا إلى العزائم الجبارة ، والعمل الدائب المستمر
والضرب على أيدي العاطلين البلهاء ، الذين يضيعون حياة
الامة ، ويقضون عليها ، ففرضت العمل الاجباري العام ،
وحرمت البطالة ، وبجالس اللهو والعبث ، ودفعت الجميع إلى
العلم ، إلى الثروة ، إلى المجد ، إلى القوة ، إلى الاعداد ،
فرضت ذلك في توجيه الامة ، إلى مشروعاتها الخطيرين .

١ - المواصلات

أجل فتحت أربعة طرق رئيسية كبرى ، تربط أجزاء اليمن
بعضها ببعض ، وبالمقاطعات المجاورة كالبحاز ونجد .

١- طريق ساحلي عظيم يوصل داخل اليمن بسواحلها
وعدن بمكة ساحلياً ، ماراً بباب المندب ومحاوطة فكة .

٢- طريق داخلي يوصل المدن بعضها ببعض ، من
أقصى اليمن حتى مكة ، ماراً بحبس وزبيد وجيزان فكة .

٣- طريق تجاري موجز ، يقضي من عدن إلى مكة
رأساً ، وهو اعظم الطرق وأوفرها تكاليف ، لأن فيه

الانفاق وتذليل الجبال ، ولذا أسماه الناس ، الطريق
العليا ، وهو مار بالجند ، وإب وثقل وسمارة وذمار
وصنماء والطائف .

٤- طريق حضرموت - لحج ، مارا بعدن ، وطوله
عشرون مرحلة ، وهو لا يقل عن الطريق العليا في عظامته
ومنافعه .

وهنا تقلب قاراتنا كفوفين مستغربات ، كيف استطاعت
هند أن تنهي مثل هذا المشروع الكبير الكبير ، في كل
التاريخ العربي الذي مر على دول اليمن ، ولكنهم إذا
علمن عزائم الجبارة ، وما أوتيت من عبقرية وإخلاص ،
يرين ذلك يسيراً ، فما من مستحيل تجاه عزائم الجماعات ،
إذا اخلصوا النية ، وتكاتفوا على العمل في سبيل الانشاء والبناء
ولعل بعض قاراتنا ، يخلتها لانعدو أن تكون جادات

ضيقة ، فتطيرها الرواحل ، بل إننا هي طرق بمعناها الفني
الحديث ، لم ينقصها إلا القار ، لها ما نعرف من سعة ، إذ
يقول المؤرخون : تسير فيها ثلاث رواحل بحملة بعضها إلى
جانب بعض ، ولا يمكن أن تسير ثلاث رواحل في طريق
إلا إذا كان محترقا وسيعاً ، على أن آثارها الشاخسة ، تدلنا
على ذلك . وتلك الطرق تحوي محطات رسمية ، وفي كل
منها مسجد ومثدنة ونزل وبئر ماء ، ويبلغ طول كل
واحد منها أربعين مرحلة . (١)

(١) المرحلة المتوسطة أربعون كيلو متراً .

٢ - مشروعيها الزراعي وتنظيم الري

إنها عملت بصرامة وجد ، لانعاش المشروع الزراعي ، وإعادة ما لليمن من خصب في عصرها الذهبي السعيد ، فأصلحت بعض السدود ، ورمت مجاري المياه القديمة ، وشيدت القناطر المتداعية ، حتى أوصلت المياه إلى كثير من المواطن ، وبذلك نهضت اقتصاديات اليمن في عهدها نهضة مجيدة ، وأثرى الناس وحسن عيشهم ، فقام العمار في كل مسكان ، وأعيدت المدن إلى اتساعها القديم ، بل جددت مدن كبرى كمدينتي « الكدراء » و « المعفرة » واستفاض العلم ، وقضي على البطالة والجمول والانزواء ، وعرف الناس روح الاسلام العملية ، وازاحوا عن كواهلهم أنقال الوضاعين وأوقار خزيمهم ، كما شيدت مسجدها الكبير في « زبيدة » الذي لا يزال إلى اليوم آية الآيات في عظمة البناء .

وأجل أعمالها المباركة الخالدة ، هو قيامها بتجديد مسجد صنعاء العظيم ، الذي شيد بأمر رسول الله ﷺ ، في العام السادس للهجرة ، وهو مسجد اليمن المبارك ، وموطن العلم وجمع العلماء ، وفيه المسكاتب والكنوز الخطية للأن ، وايضاً توجهت عزائها إلى تجديد جامع « الجند » الذي شيده المعلم الاسلامي الاول لليمن ، بعث رسول الله الصعالي الجليل « معاذ بن جبل » كما جددت بناء مسجد « عدي » الذي أنشأه الخليفة الاموي العادل « عمر بن عبد العزيز » وبكلمة موجزة ،

توجهت عنايتها لتجديد آثار اليمن جميعها ، خشية التدهار والاندثار ، كالأسوار والحصون ، بله ما شيدته في حكومتها من مدارس ، ولم يجد لها العلماء مثيلاً في التاريخ ، بعدلها وتقواها وزهداها ، وعفافها وابتعادها عن اقتناء الزخارف لنفسها ، إلا عمر بن عبد العزيز . وقد ظلت تسوس مملكة اليمن السعيدة ، على هذا اللون السامي الرفيع ، أربعين عاماً ، وهي تعد بحق أمي لؤلؤة في تاج التاريخ العربي ، وقد استحضات ذكرها في كل موطن ، واحتذى آثارها الملوك والباطرة وقدموا لها نفيس الهدايا ، وكانت وفاتها (١) أكبر كارثة في المجتمع العربي ، حتى أنه عادت إلى اليمن بعدها خصوصيات المتفيعين الاشرار ، وبرزت قرون الأبالسة ، ونهض الممزقون الآثمون ، يستعيدون صغارهم وفنتهم ، ويسخرون الشعب المسكين تسخير الاماء ، ويسوقونه للمجازر موق السوائم ، ولولا أن الله أراد أن يمد يد المعونة والانقاذ ، والرعاية والحفظ لقومنا في اليمن ، لسكان الخطب عظيماً ، والبلاء جسيماً .

أجل أمدها في شخصية الملكة المحبوبة ، « أسماء ابنة شهاب » ، أمدها في حسن سياستها وجليل أعمالها وكريم

(١) والذي يبكينا ويؤسنا حقاً ، أنت تذهب مثل هذه الملكة المصلحة البرة ، ضحية الايدي الغدارة الآثمة ، وهي بطة اليمن بل المجتمع العربي ، بل الانسانية جمعاء .

اخلاصها ، وفي جملة مشاريعها العمرانية الكبيرة الكبيرة ،
 واثن كانت « زبيد » مطلع شمس هند ، وعاصمة ملكها ،
 فان صنعاء مطلع شمس أسماء وعاصمة دولتها ، ولم تكن
 أسماء حتى في يوم طفولتها ، بالفتاة الغرة اللعوب ، وإنما
 كانت بمقتضى نشأتها الصارمة العنيفة ، أبعد المجد ما تهدف إليه .
 وهل باقني اللهو وطلب الأجداد ، والبطولة والمغامرة وبعد المهمة
 والخلود مع اضاءة الوقت ؟ والمؤرخون يعززون جد هذه التربية
 الفذة ، إلى والدتها المربية الحازمة ، إذ ركزت في نفسها الشجعان
 والاباء ، وطلب المجد والخلود ، وهي التي كانت تقول لها
 دائماً : « أنت جديرة بالملك ، ولا يصلح للاقتران بك إلا
 ملك ! » فأسماء نشأت متبيلة ، لخدمة الأمة ، وإعادة أجدادها
 وجمع كلمتها ، والسمو بها إلى المثل العليا ، وقد تزوجها
 « ابن عمها علي الصليحي » ولكنها كانت تحن أبداً إلى السياسة
 وخدمة الأمة ، والنضال والجهاد ، وبالأحرى حين الفت
 اليمن ، بعد موت الملكة الصالحة البهرة هند ، تطعن في
 أحشائها الفوضي ، وتمزقها إربا عداوات المجرمين ومنافع
 الاقطاعيين اللؤماء الذين يعيشون بدماء ضحاياهم .

ها هي ذي تنادي بوجوب الإصلاح ، وتستعين بأختها
 الكبرى « مصر » حتى أنها نادى باسم خلفائها الفاطميين ،
 وأقامت زوجها لتنظيم الدعاية الفاطمية في اليمن ، واتجهت
 هي بكل نفسها لإدارة السياسة والملك ، إلا أنها وجدت
 من المصلحة والحزم ه أن لاتفصل اليمن عن هيكل المجتمع

العربي - وهي عضو رئيسي فيه - حذراً عليه من التمزق والتباب
إذ ذلك كل ما يفيد العضو المنفصل ، وهل يكون العضو
حياً إلا بالوحدة الجامعة بينه وبين الاعضاء كافة ، فالأمم
الإنسانية ليست كأمة البعوض ، يحبسها التفرق ويميتها الاجتماع .
وقد عرف علماء اليمن فضل جهادها ، وجليل أعمالها في
جمع الكلمة ، وإبادة المفسدين الممزقين ، فتهتفوا باسمها ،
ودعوا لها على ذرى المنابر في صلواتهم ، وأطلقوا عليها هذه
الأسماء ، الدالة على كبر مسكانتها في أنفسهم « كافة المؤمنين ،
الملكمة الحرة ، السيدة السكامة » وقد فضلوها على بلقيس
ووأوها أعظم منها دولة وسلطاناً لعظيم مشاريعها العمرانية
التي أنفقت في سبيلها الأموال بكل سخاء ، وهذا شاعرهم يقول :
رسمت في السماح سنة جود

لم تدع من معالم البخل رسماً

قلت إذ عظموا لبلقيس عرشاً

عرشُ أسماء من ذرى النجم أسمى

ولم تكن أسماء في اليمن ملكة فحسب ، بل عاهلة
غلبت على خمسة وثلاثين ملكاً ، أصبحوا ياتمون بأمرها
ويحجون معها ، وقد آثرها أهل اليمن على شقيقها الأمير
« أسعد الصليحي » بالمبايعة ، على أن شقيقها نفسه ، كان
يحبها ويؤثرها على نفسه ، ويعرف لها فضلها ، وبعد نظرها

ودعاهما السياسي وإخلاصها ، وإنه رضي أن يكون من
جملة ولائها المخلصين الذين صاهموا في بقاء مجد اليمن معها .
والذي زاد مكانتها في أنفس الناس ، أنها كانت تفضل
انفاق الأموال ، في مميل المصالح العمرانية العامة ، على
خزنها ، أي كانت تدير على سنن الخلفاء الراشدين ، الذين
لا يبقون الأموال تتكلم في بيت المال ، وكان هذا
الانفاق يسعدها وبذلها ، وكثيرا ما كانت تتمثل وهي تأمر
بانفاق المال ، بقول الشاعر .

إذا المال لم تنفقه في مستحقته

فما هو إلا حسرة ووبال

وانفاقها هذا يدلنا على أنها تفهم أن الأموال ما جمعت
من أفراد الأمة ، إلا باسم المصالح العامة ، فجزها عنها إثم
اختلاس ، لاتراضاء هي ولا الشريعة .

على أن قانوننا يجدد أسماء ، فوق كونها عاهلة سياسية
محكمة ، وزعيمة اجتماعية مصاحبة ، ومؤمنة خيرة نبيلة ،
يجدونها مقساحة غير مؤاخدة ولا منتقمة ، مسع قدرتها على
المؤاخدة والالتقام .

هؤلاء هن بشاهدن جماعة من الحائنين الآثمين ، يتعاقدون
على اغتيالها ويأقرون بها ، وهي التي تعمل بحجة لحياتهم ،
وإسعادهم وجمع كلمتهم ، ولكن الوباء وإن كان يعيش على
حساب الجسم ، إلا أنه يهدمه ثم الهدم . وإن كان هلاكه
محتسباً معه ، فإنه وباء . وهكذا هجم هؤلاء الاشرار البغيضة

الآثمون ، على قصرها في صنفاء ، وقتلوا حرسها وزوجها
 وأقرباءها ، وكتبوها أسيرة ، ناسين أن الله عينها ، ترى
 المصلحين ، وقدرة لا يعجزها شيء ، تنتصر لهم وتذود عنهم ،
 فلا يتم ظالم عما جذت يده على العباد فعين الله لم تتم
 أجل رعتها عين الله ، وذادت عنها قدرته فقبض لها رجالاً
 أبطالاً ، مؤمنين بجليل خدماتها ، وكريم إخلاصها ، ومنافعها
 العظيمة ، للعروبة في اليمن ، فالتفوا حول ولدها البطل
 الباسل ، القائد « أبي المسكرم » وهاجوا الثوار الذين فروا
 بها إلى زبيد ، هجومًا جبارًا عنيفًا ، وانقضوا من أغلالهم
 العاتية القاسية ، وأعادوها إلى عرشها آمنة مطمئنة وأتوا
 بأولئك الثوار الآثمين الحائثين بين يديها ، وهم مشدودون
 إلى الجامعات ، ليعدمهم جميعاً تحت أقدامها ، ولكنهم
 وقفوا حادثة باكية وهي تقول : « لا لا : هؤلاء ابناي وإخواني
 ماغرر بهم إلا ضعف عقليتهم وجهلهم ، ألا إن دمهم دمي
 وحياتهم حياتي » !!

ولعل قارئنا لن يجدن في تاريخ الملكات نظيرها ،
 سوى ما يلحظه من إشعاع روح « كاترينا » الانساني ،
 حين حالت دون إعدام المتآمرين على حياة زوجها ...
 وأسماء لم تشأ أن تدع شؤون اليمن من بعدها فوضى ،
 تتلاعب بها الساسة والزعماء ، ويمزقونها كل ممزق للامتصاص
 والاثراء ، على حساب موتها ، كما تركتها هند بل نجدتها
 وإعيتة يقظة نافذة البصيرة تدرك ما يكون بما كان ، أي

يصدق عليها قول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم « السعيد
 من وعظ بغيره والشقي من وعظ بنفسه »
 أجل اعطتها الاحداث السياسية والازمات التي مرت
 باليمن بعد مقتل هند ، درسين بليغين ، الاول نهضة ولدها
 « أبي المكارم » ليكون قائداً باستطاع الذود عن مبادئها
 الاجتماعية لدى العدوان ، والثاني اهتمامها بأعداد من يخلفها
 سياسياً في ادارة الدولة ، فأعدت لهذا الامر « أروى ابنة
 أحمد الصليحية » ولبعد نظرها ، وخشية الخلاف والشقاق
 عليها ، جعلتها زوجة لنفس ولدها أبي المكارم .
 ولعل قارئنا يتقدمها في إثارة الملك لأروى دوت
 ولدها ، ولكنهن لو نظرن إليها ، نظرها ، وتعرفن متعمقات
 إلى ما في نفس أروى ، من جليل المواهب العبقريّة الفذة ،
 وتفرسن في بواردها فراستها ، التي اظهرت الايام صدقها ،
 لما تقدمها في ذلك الاثارة ، أظهرته يوم أن وقفت أروى
 في اليمن تحافظ على كيانه السيامي الموحد ، وتسمو
 بنهضته إلى الكمال بارة ، زاهدة في مظاهر الترف ومفاتن
 العيش الانيق ، بل حتى في مفاتن الزوجية التي هي شغل
 أكثر النساء المشاغل نعم أخذها شيء من غرور الملك ، في
 أول عهدها ، أيقظه في نفسها ، نفاق المنافقين
 وإسرافهم في الثناء والاكبار ، والتمجيد والتأليه ، حتى أنها
 أخذت تغدق الاموال يميناً وشمالاً ، مسرفة في بناء
 قصرها « دار العز » فعلت ذلك استجابة لاجأهم ، وإعلاء

لاقدارها وخصائصها وتمجيداً لجلالها . واخيراً فطلعت إلى تدابيرهم
وشروهم ، وأنهم قوم انتهازيون ، فأبعدتهم ، كما فطلعت أن
الاموال التي انفقتهافي بناء دار العز ، هي أموال الامة ،
فحاكت نفسها إلى الدستور « القرآن » بايمان وصدق وإنصاف ،
قبل أن تحاكمها الامة ، فما رأت في تشييده أية مصلحة عامة
فحكمت بتسليمه إلى الامة لانه حقها الشرعي ، فجعلته مسجداً ،
ومنهلاً للعلم وداراً للكتب .

وهكذا اراد الله سبحانه وتعالى لهذه الملكة ، العزة
والخود والكرامة ، فألقاها من بلايا الغرور والاستئثار إلى
دعة الملك وراحة السلطان ، فنزلت إلى الشعب وآمنت عملها
بأنها فرد من أفرادها تخضع لما يخضع له ، وتعود بما يسعد
به ، سياسة واقتصاداً وأخلاقاً وعملًا . وكان من نتائج ذلك
التدبير الحكيم ان ثورة « سعيد بن نجاح » لم يعابها الشعب ، ولم
يختلف حولها سوى بعض الناقمين الذين لاغناء فيهم ولا رجاء عندهم
ولولا هياج « ام المعارك » زوجة ابن نجاح والتفاف اقرباؤها
حولها ، لما عبثت أروى بالثورة وحملت عليها تلك الحملة العنيفة
التي أسفرت عن مقتل ام المعارك وزوجها .
والواقع أن أروى لم تكن بالمرأة الغافلة ، بل كانت
أبدًا صاهرة على وحدة الشعب ، ترصد كل من يتحدث نفسه
بتمزيق الامة ، وتأتي عليه قبل أن يتفاقم أمره . أجل قضت
على الثورة والثائرين ، وأخذت أوارها وارجعت للامة
هبة الوحدة وجلال الاجتماع ، واعطت درساً دائماً لكل

مفسد سفاوح ، يحاول أن يعيش على حساب انشقاق الامة
وامتصاص دمه .

وها هي ذي أحبت أن تلتمس القربى لدي رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنفقت من الاموال الكثير ،
في توسعة مسجده في صنعاء ، واقامت أروقة حوله ، بما جعله
إلى اليوم ، ذكرى لغنايتها وتخليداً للملكها ، وحسبها شرفاً
وفخراً أنها آخر ملكة نالها شرف الزيادة فيه . ولا يزال
المسافرون إلى اليوم بين « تعز وصنعاء » وبين « إب وصنعاء »
يستمتعون بآثار يدها السكوب ، في انشاء الطريقين الواسعين
المعبدين بالحجارة الضخمة المردة ، البالغين ألوف الاميال ،
كما يستمتع أصحاب المواشي بمروجها الموقوفة ، ومجاري المياه
التي تندفق هنا وهناك ، لارواء الانسان والحيوان والنبات ،
متدفقة في اقنية فنية دقيقة ، تدل على كبير عنايتها بالاصلاح
والخير العام والمشاريع العمرانية . ولا تزال إلى اليوم نشاهد
قصرها الصيفي « المخادر » يرف بشرفاته ، وبتسامي بداره
كأنه « غمدان » .

وقد حدثنا صديقنا العلامة الاستاذ رشيد سمنو (٢) مدير

(١) أحد أساطين النهضة العربية الحديثة ، وله اليد الطولى في
خدمة الافطار الشقيقة ، وهو الذي تلتطف باهدائنا فحوى سيرهذه
الملكات الثلاث اللاتي حكمن بالتتابع من عام ٣٩٦ لعام ٥٣٢ هـ
مشيرا إلى مصادرهما المطبوعة والمخطوطة .

أما المطبوعة ، فتاريخ ابن خلدون واليعقوبي وتاريخ مساجد

الاذاعة والنشر في صنعاء ، أنه كان يكبر الصلوة البوّة
وهي ترتفع من أفواه الشعب ، المنتفع بأنارها ومشاريعها
العمرائية .

ألا يقظ الله لشعب اليمن الباسل المجيد ساسة دهاء
مخلصين يعملون سـاهرين مجدين بكل شهواتهم الذاتية في
سبيله . .



صنعاء ، وتاريخ عمارة طبع لندن عام ١٣٠٩ و ١٨٨٢ . واما
المخطوطة ، فبغية المستفيد ، وتاريخ صنعاء ، والسلوك وقرّة
العيون ، وفلاذة النجر ، وتاريخ الجنيدي ، والاعتبار انباء ابناء
الزمان ... وتوجد متفرقة في دار الكتب المصرية ومكتبة صنعاء
ومكتبة الامام يحيى ومكتبتي كوبرلى وأياصوفيا في الاستانة .
وإنما نجد من الوفاء والاخلاص أن نفوه بأجواد شقيقه الاستاذ
« رفيق منو » صاحب جريدة بريد اليوم ، لما يبذله لنا من مساعدة
علمية تجاه إخراج هذه المجموعة التي يعنيه أمرها .

الفهرس

٣	المقدمة
١٧	المراة والسلام
٣٦	، والمتزلة الاجتماعية
٥٦	، والمصلحة الاجتماعية
٧٨	، والمشاريع العمرانية العامة

ملاحظة:

سقطت بعض جمل نلفت نظر القاريء الكريم اليها « وهي في طريقها الى الحج » هذه الجملة سقطت من يد الطابع وهي في صفحة ١٠٨ بعد و كبلوها أسيرة . . . « وبجر الهند » هذه الجملة سقطت من صفحة ٦٤ وهي بعد « وتدفت في البحر الاحمر » وهناك بعض اخطاء طفيفة لاتخفى على القراء

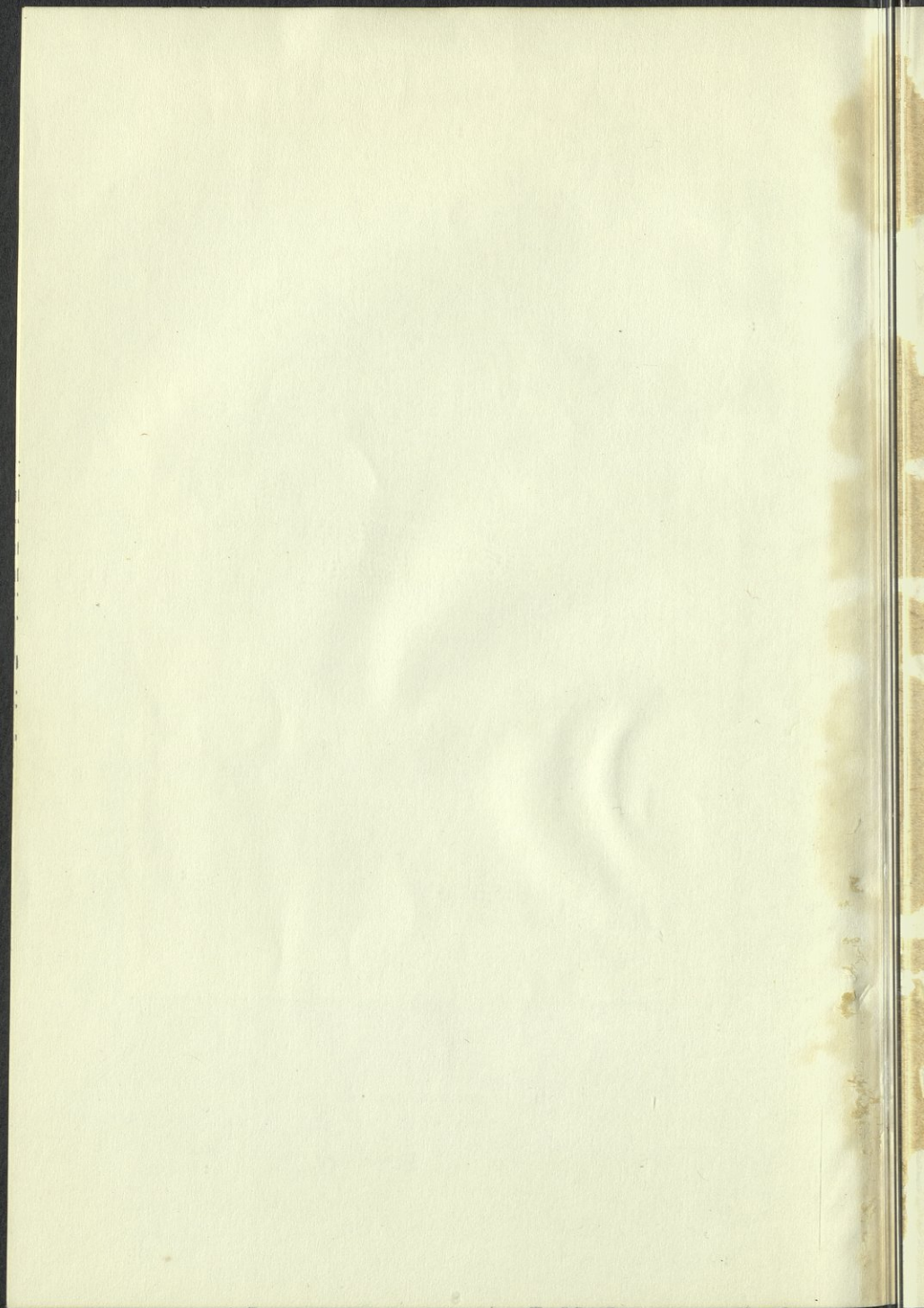
الاسلام بين السنة والشيعة

هذا الكتاب يتناول عرض الاسلام كما فهمه أئمة الشيعة والسنة في العصور الذهبية الاولى كما يتناول بشرح الادوار التي مرت عليها الفروع الاسلامية الاجتهادية شرحاً دقيقاً خالياً من التطويل الممل .

ومن كل ذلك تنكشف لك الاصول الاسلامية الواحدة التي أشار اليها علامة النجف الاثرف بني الاسلام علي كلمتين « كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة »

فهو شعلة روحية مقتبسة من صميم الوحي الالهي الذي أنزله الله لاسعاد الانسانية جمعاء .

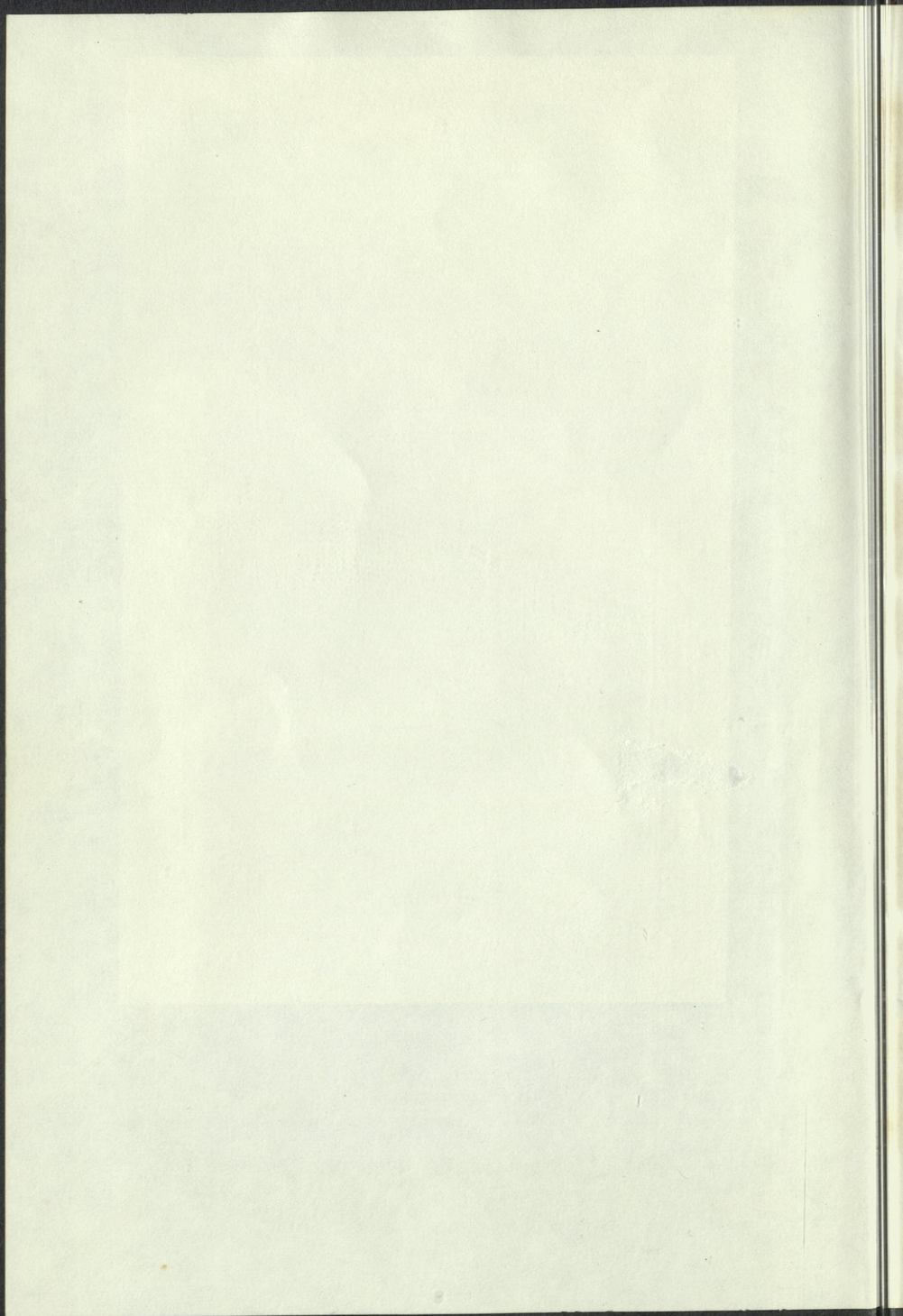
— فانتظروه قريباً —



الإسلام بين الهند والصين

هذا الكتاب يتناول طريق الإسلام كما فهمه الهند
الصينية والهند في المصادر الهندية الأولى كما يتناول
شرح الأموار التي سوت عليها المدح الاستعمارية المتزايدة
نوعاً دنيماً خالياً من التطويل المفسر
ومن كل ذلك يتبين لنا أن الإسلام في الهند
التي أشار إليها علماء الهند الاستعماريين في البلاد
كلمة أو كلمة التوحيد ووجه الكلمة
من جهة روحية مختلفة عن غير المؤمنين
أولاً على أساس الأساطير الهندية

— فاضطروا قريباً —



J. Lib. DATE DUE

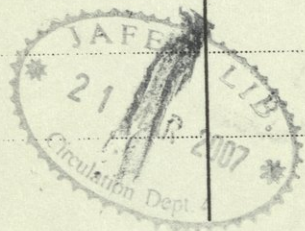
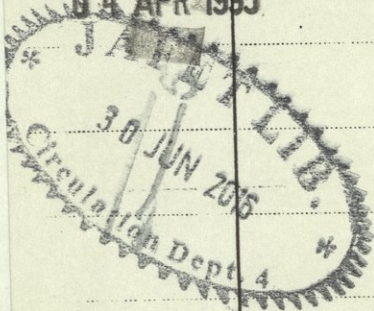
20 NOV 1985

J. Lib.

16 DEC 1985

Jafet Library

04 APR 1995



A.U.B. LIBRARY

301.412:D124hA:v.2:c.1

الزعيبي، محمد علي

حياة المرأة في السياسة والاجتماع

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01011001

301.412
D 124hA
v.2

